فألهمها فجورها

اسم الكتاب: فألهمها فجورها

التأليف: شيماء الشكر

نوع العمل: رواية

مراجعة وإخراج فني: سالم عبد المعز سواح

رقم الإيداع: 2022 / 25100

الترقيم الدولي: 1-334-835-977-978

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

٤ ش بديع خيري متفرع من ش عبد الحميد بدوي خلف كنتاكي نادي الشمس مصر الجديدة - مصر.

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

Email za7ma.kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

فألهمها فجورها

رواية

شيماء الشكر

الإهداء

إلى كلِّ مَن يؤمن أنّ القراءة نهج حياة وعلى أساسها تبنى العقول

قبل كل شيء؛ لطالما كانت وستظل الرواية مجهرَ الواقع وصوت المجتمع والركح الذي يعرض مآسي الناس

اعتراف

لا يزال الخوف من قول الحقيقة والاعتراف بنواقصنا يلاحق كلا منا كشبح مرعب؛ لأن ظهورها سيذيب تمثال المثالية الذي نحتناه بتزييف لشخصياتنا.. خصوصا عندما تكون هذه الحقيقة ستؤثر سلبًا على ذلك الانطباع الأول الذي صممناه ليرتديه عقل من يتعامل معنا.. لذلك نجد جل العلاقات تصاب بخلل في المنتصف؛ تهوى أعمدتها لأن بناءها مغشوش وقد خيل لنا أنها بنيان مرصوص بالصدق والوفاء.

لهذا الاعتراف بمساوئنا يثير الهلع داخلنا... يشعل فتيل التوتر ويزلزل كياننا، بالأخص عندما يتم تسليط الضوء على قضايا اجتماعية تجد الكل يحاول تغطية المصيبة بثوب مهترئ مقنعين أنفسهم أن ما يحدث يندرج تحت مسمى "عادي" حتى نتجنب اللوم والعتاب.. فما يظهر الآن في مجتمعاتنا العربية من انحلال وتسيب وتقليد وتهريج ومحتويات إلكترونية مستواها دنيء ما هو إلا نتاج التستر والأفكار المسمومة التي أصابت الأدمغة بالتلف كأنها فيروس وعدم إعلان كلمة الحق، وكما قال الإمام الحسين رضي الله عنه: "إن الكلمة حصن الحرية.. إن الكلمة مسؤولية... بعض الكلمات قلاع شامخة يعتصم بها النبل البشري.. إن الكلمة فرقان ما بين نبي وبغي".

فعوض أن نخشى هتك ستر آثامنا أصبحنا نفتخر بعلانيتها على أساس أنها حرية وانفتاح، نسوا أن الحرية هي حرية الفكر عندما ينفك من أصفاد الجهل الموروث ويرى الحياة بمنطق ويسعى

للتصحيح والتطوير دون تطاول على المقدسات أو تهجير للمبادئ.. فللأسف نحن تمردنا على زماننا وقدنا بأنفسنا إلى الهاوية.

وحبذا أحيانا لو نعترف أن لكل منا جزءًا خبيثًا لا يظهره للناس أجمعين خوفًا من أحكامهم ونظراتهم التي تشعرنا بالدونية. لنعترف أننا نستلذ بوساوس الشيطان فنتبعها مستمتعين بها معلنين في الأخير أننا ضحايا شره، وبأن الفتن أقوى منا؛ فنحن لسنا سوى بشر؛ ضعفاء تغلبنا شهواتنا وتسيطر علينا رغباتنا فلا نعد نفكر بعواقب الأمور.

جحود يسيطر علينا فيمنعنا حتى من الاعتراف بذنوبنا لأننا نستهوى اللذة ونخشى العقاب، فنطفئ جهاز إنذار الحرام بداخلنا مهطعين رؤوسنا لغرائز تتحكم بنا؛ لأننا نهوى الخطيئة، والطاعة ثقيلة على قلوبنا لأنها تستحب نفوسًا طاهرة ونحن ظلام المعصية تملكنا.... والغرائز هنا ليست فقط غرائز جنسية؛ بل غرائز كالطمع والتحكم والأنانية وغيرها... وكما قالت رضوى عاشور "ففي مجتمع منحط تتوارى فيه القيم، يختزل الإنسان مسعاه إلى تلبية غرائزه بأكثر الأشكال عنفا وفجاجة" فالأفعال الخالية من الوعي ما هي إلى نتاج فكر مهدوم.

لنعترف أيضًا أن الظروف القاسية تضاجع أرواحنا ألما وقهرا وحزنا فتهتك عذرية البراءة والثقة والحب فينا، لنصبح على ما فعلنا من سوء نادمين.

لنعترف أننا نعيش داخل مجتمع يعاني أفراده من انفصام الشخصية وتناقض الأفكار، يمتلكون تعدد الوجوه واختلاف الآراء

وانعكاس الصورة ويسبحون عكس التيار، فلا مرفأ لهم لأن سفنهم ضائعة في بحر التناقضات. تناقضات بنيت على نقص منبثق من ضعف الوعي وكثرة القهر والفساد.

لنعترف أننا جيل بلا هوية ولا انتماء... نحن فقط تقليد ونسخ مفبركة... مزيج من لا شيء... فلا الأسرة أقامت أركانها فينا ولا المجتمع ترك لنا حرية الاختيار. أسقطنا التفكير في القضايا وهمشنا المنطق وسرنا نحو التفاهة... كاهِلُنا لا يقوى على حمل الصعب لأن شخصياتنا أصابها الشلل... لا تربية إيجابية ولا محتوى ناطق بالحق، والضياع يقرع الأجراس...

ولقد جسد هذا ابن خلدون عندما قال: "المجتمعات المقهورة تفسد أخلاقها"

فلنعترف إذًا أن مجتمعاتنا العربية فعلًا معاقة فكريًّا وهذا ما سنراه في هذه الرواية.

*****

"إذا رأيت الناس تخشى العيب أكثر من الحرام، وتحترم الأصول قبل العقول، وتقدس رجل الدين أكثر من الدين نفسه.... فأهلًا بك في الدول العربية"

د. مصطفى محمود

المقدمة

أن تكون غير قادر على تغيير حياتك، والظروف تجبرك على السير في طريق لا تشبهك ولا تليق بك، فهذا أقسى عقاب يمكن أن تناله من الحياة، خصوصا عندما ترى نفسك تملك روحًا نظيفة لا تعرف للسوء طريقًا، لكنك مجبر على اقتراف أخطاء تدرك جيدًا أنها لا ترضي الله وهنا تدخل في صراع بين ذاتك التي ترفض الوقوع في وحل الذنوب، وبين أيامك التي تصر على جعلك من أهل جهنم مع العلم أنها لم تقدم لك فرصًا جيدة ولم تزف لك بشرى خير قط.

نظل نراود أنفسنا عن أشياء يزينها لنا الشيطان تارة وعن أشياء يدفعنا الزمان للقيام بها؛ وفي أحيان كثيرة نقع في فخ الممنوع مهما حصنّا أرواحنا ضد مس الشر.

نصبح لا شيء في نظر أنفسنا..... نمقتنا عندما نضع رؤوسنا على وسادتنا ليلا لأننا لسنا نحن، غرباء عنا، أشياء ضائعة بداخلنا، نور يحاوطه الظلام ليصبح الوجع كبيرًا. وجع مليء بألم يقتلنا رويدا رويدا يسلب منا المتعة والراحة ويضعنا بين أعتاب الندم والتيه.

ليس سهلًا أن نجد أنفسنا، فرحلة البحث عن الذات تأخذ وقتًا طويلًا خصوصا عندما يكون المرء لم يختر يومًا مسير حياته، فيضحى المصير مشوهًا في أعيننا لأننا لم نصنعه بناء على رغباتنا أو قناعاتنا، ولم نحظَ بفرصة لإثبات ذواتنا أمام تحديات الزمن، فمناحي أيامنا اتخذت سبيلًا لا يشبهنا وقيدتنا بأصفاد الخضوع للأمر الواقع للقبول بها. فلا مفر عندما يضعك القدر في زاوية الرضوخ تتخلى تلقائيًّا عن كل آمالك لأنك لست في وضع يسمح لك بالاختيار؛ أنت فقط مؤمر بالانصياع.

وكحقيقة، فإن من يرضَ بحياة لا تشبهه يعِش تعيسًا للأبد.

*****

"نحن نحيا ونتجدد بأحلامنا فإذا تخلينا عنها فقد سمحنا للموت أن يعبث بنا"

أيمن العتوم

الفصل الأول

" من يستسلم لضعفه يعش تحت أقدام الآخرين "

بصوت يملأه الخوف قالت أمي لأبي: إن البنات لا يملكن ملابس جديدة لهذا الشتاء فكل ثيابهن أصبحت صغيرة لا تليق عليهن ولا بهن، والجو بارد جدًّا هذه السنة لذلك إني بحاجة لبعض النقود لشراء أغراض لهن.

بلا مبالاة وصوت من حديد كالعادة أجابها أبي: لا أملك المال ولست بواصٍ عليكن تدبري أمرهن أنت.

أجابته بشجاعة جبانة كعادتها: كيف لي أن أتدبر أمرهن وأنا لا أملك مالًا، المفروض أنك والدهن ومن واجبك إطعامهن وعليك كسوتهن، إنهن فتيات أنت سندهن ومعيلهن فلا تتعامل معهن بقسوة هكذا، يكفي أننا أنجبناهن في فقر يكسر المرء. أرجوك لا تكن أنت والزمن عليهن.

باستهزاء رد عليها:

هل انتهيتِ من درس الأخلاق يا سيدة الحنان والدفء؟ هيا انهضي من أمامي وإلى جهنم أنتِ وبناتك. أصلًا أنتِ لست بامرأة إنكِ ناقصة؛ فأنتِ لم تستطيعي إنجاب ولدٍ أفتخر به أمام الملأ وأتغنى بلقبه بين الناس بدلًا من يا أبو البنات التي تقال لي استهزاءً برجولتي، أضيفي إلى هذا كله إنجاب فتاة حمقاء تشبهك فعليكِ اللعنة أنت وهن. لكن أتدرين إنكِ محظوظة لأنني لا أملك المال وإلا كنت قد تزوجت خيرة البنات ورزقت بولي العهد وألقيت بكن في الشارع. فاشكري الله على أنني فاتح لكن منزلي.

بعدما قامت بالابتعاد عنه بضع خطوات خوفًا منه قالت له أمي: ومن هي هذه التي ستوافق على الزواج بطيف رجل، فأنت

لست سوى سكير مقامر، وحتى لو كان معك مال قارون لن تحلو في عين امرأة أبدًا، شخص مريض.

والسكين في يده اتجه نحوها مردفًا: بما أنني طيف رجل ومريض لماذا قبلتِ الزواج بي؟ أم أنكِ كنتِ تعلمين أن لا أحد سيوافق على امرأة مغتصبة سوى رجل فقير مثلي أغراه والدكِ بمال ومنزل مقابل أن يستر شرفه الذي دنسه صعلوك لا تعرفونه كما ادعيتم فأنا صراحة وعلى الرغم من مرور عشرين سنة على زواجنا لست مصدقًا لهذه الأقاويل.

بسرعة البرق دخلت علينا أمي الغرفة أنا وأختي أمل وأوصدتها جيدًا قائلة: "لا تخافا إنني معكما"، والرعب يعتصر من عينيها، فكيف لغريق لا يجيد السباحة أن ينقذ غريقًا غيره، لكن ربما أحيانا الضعف يولد القوة عندما يرى المرء نفسه لا يملك شيئًا يخسره ما دام الهلاك سبيله.

بقوة يضرب أبي الباب ويصرخ: لماذا أنتِ مختبئة؟ والله سأقتلك فلقد ضقت منك ذرعا فلستِ سوى امرأة سوء ونحس. هيا اخرجي وإلا كسرت الباب وضاجعتك أمام بناتك الرقيقات وبعدها اغتسلت بدمك وأنت ميتة بجانبهن، وأنت تعلمين أنني صادق فيما أقول وأفعلها.

خرجت والدتي مستسلمة لأوامره كالعادة، وأنا وأختي يملأ الفزع أجسادنا، استدرت فوجدت أمل قد بللت ملابسها، وجسدها يرتجف وتبكي في صمت.

يحزنني حالها كثيرًا فهي بعمر الست سنوات وحالتها النفسية مدمرة كليًّا. فهي لا تستطيع الكلام الآن بعدما حاول أبي ذات ليلة رميها من السطح بسبب أن أحد أصدقائه شكك في فحولته كرجل وأنه لا يقوى على إنجاب الذكور فأتى إلى المنزل ليلتها كريح عاتية قادرة على تدمير أي شيء أمامه، فحمل أختي وقد كانت نائمة وصعد بها إلى السطح والشتائم تهطل علينا من فمه كالمطر وقام بإدلاء جزء منها والجزء الآخر يمسكه ويتفوه بأقذر الكلمات.

كانت أمي ستجن من الهلع وهي جاثية على ركبتيها تتوسل إليه بأن يضع أختي أرضًا وستقوم بأي شيء يريده. لكنه لم يعرها اهتمامًا بعدما كان الحي كله يشاهد ما يحدث دون محاولة أي منهم إنقاذ أختي منه، فمن سيريد أن يجلب لنفسه المشاكل ونحن في زمن الكل يبحث عن الخير والسلام لنفسه، أما الآخر فلتلتهمه النار.

كان جبارًا ليلتها لا فؤاد له ولا ذرة حب في أحشائه كرهته كثيرًا منذ ذلك الحين، فكيف لمن يقال عنه إنه السند يكون الحائط المائل الذي يسقطك أرضًا حتى يكسرك.

وأخيرًا وافق على إنزال تلك الطفلة التي سيعاقب عليها يوم القيامة بأشد العقاب بعدما أعطته أمي سلسلة الذهب التي كانت آخر ما تملك. أما أمل فمن خوفها وصراخها حينها ذهب صوتها جراء الصدمة ومن وقتها وأنا أحاول معها على أمل أن تستطيع ولو نطق بعض الكلمات فقط.

غيرت لأمل ملابسها وهدأت من روعها إلى أن نامت، أما أنا فلم أخلد للنوم كعادتي عندما يعود والدي ثملا لأنني أدرك جيدًا أنه سيجعل ليلتنا جحيمًا.

أتى الصباح فغيرت ملابسي وخرجت لتناول فطوري والذهاب إلى المدرسة فوجدت كتبي كلها ممزقة فوق الطاولة. ناديت إلى أمي لترى الجريمة التي اقترفها زوجها في حقي وأنا التي لا ذنب لي سوى أنني ابنته. فنحن أحيانا نحمل ذنوبًا لم نقترفها فتجدنا ندفع ثمنها غاليًا جدًّا.

لم تدرِ أمي ما ستقوله سوى أنها رفعت يديها إلى السماء وقالت: حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا حسن فلينتقم منك الله على ما أنت فاعل بنا.

حضنتني بشدة ووعدتني أنها ستشتري لي كتبًا جديدة مقابل أن لا أفكر فيما حدث أو أحزن.

- لكن من أين ستأتين بالنقود وأنت لا تملكين شيئا؟

- لا عليكِ يا وردة سأقول لأختي أن تقرضني لا تقلقي، أنتِ اهتمي فقط بنفسك وبدروسك والباقي له حل.

لم أذهب يومها إلى المدرسة ولحسن حظي أننا كنا في فترة الدعم فقط لا دروس جديدة سنتناولها، كنت أحمل أشياء بداخلي أكبر من سني بكثير وكنت أرى الحياة بمنظور آخر، أرى قدري يرسم على ورق متسخ؛ ملطخ بألوان كئيبة... فأتظاهر بأنني لا أبالي

ولا أهتم لما يدور بين والدي ووالدتي وأنا التي كنت أخزن أدق التفاصيل في ذاكرتي. فذاكرتنا ونحن صغار تؤرشف كل شيء؛ خصوصا تلك الأشياء التي كانت سببًا في أذيتنا واهتراء أرواحنا.

بعد الغداء وجدت أمي تجلس لوحدها فاستغللت الفرصة وذهبت إليها:

- أمي هل لي بسؤالك عن شيء ما لو سمحتِ؟

- بالطبع عزيزتي تفضلي ما الأمر؟

- إن أبي دائمًا عندما يتشاجر معك يقول كلامًا كثيرًا سيئًا عنكِ وعن عائلتك، لكن ليلة البارحة أول مرة أسمعه يقول إنك تعرضتِ للاغتصاب فهل كان يعي حقا ما يقول أم أن الثمالة أفقدته عقله؟

اعتصر الدم في وجه أمي وارتبكت بشكل غريب ثم قالت:

- طبعا ما قاله والدك كذب؛ إنه يحاول أن يشوه سمعتي ويسيء إليّ بأقذر الطرق فإياك أن تصدقي كلامه يوما يا وردة إياكِ يا ابنتي.

- حسنًا لا تقلقي فمهما قال والدي عنكِ فنحن نحبكِ أنتِ لا هو وندرك جيدا من الأسوأ فيكما أنه سيئ فلا تظني أنني سأتبع هواه فأضل سبيلي.

دخلت إلى غرفتي وأنا على يقين تام بأن أمي تخبئ شيئًا بخصوص هذا الموضوع، فردة فعلها عندما سمعت سؤالي كانت

مليئة بالشكوك. لكن سأترك هذا الأمر للظروف فهي كفيلة بشرح كل شيء لنا مهما كان غامضًا.

أتى الليل ثانية وأنا التي بت أكرهه لأنه موعد مجيء الغراب الذي يسود حياتنا، دلف المنزل وهو يصرخ عاليا:

- وردة، وردة أين أنت يا فتاة؟ هيا تعالي إلي حالًا.

- نعم يا أبي ماذا تريد؟

- خذي هذه الورقة واملئيها كالعادة وإياك أن تتسببي في خسارتي وإلا حلقت لكِ شعركِ هذا وأنتِ تدركين جيدًا أنني أنفذ ما أقوله دائمًا. سأذهب لأغتسل وأغير ملابسي وآكل، وأنتِ عندما تنتهين أحضري لي الورقة.

- حسنًا لن أتأخر عليك.

قمت بملء ورقة القمار كالعادة، فهو من علمني كيف أقوم بهذا. حددت أرقام الأحصنة التي ستدخل السباق على أمل أن تفوز حقًّا لأنني أعلم علم اليقين أن تهديده لم يكن كلامًا فقط بل هو شيء مستعد أن يقوم به دون تراجع.

أخذت الورقة واتجهت إليه مردفة:

- ها هي ورقتك يا أبي.

أخذها مني دون أن يعيرني أي اهتمام، فسألته:

- أبي؛ لماذا قمت بتمزيق كتبي؟ بماذا سأدرس الآن في نظرك؟

كنت أحاول دائمًا أن أتخلص من خوفي منه وأواجهه بما يزعجني كي لا أصبح ضحية بين يديه فيقضي عليّ كما فعل مع أمي.

أجابني بصوت حاد:

- وهل أزعجك أنني مزقت كتبكِ على أساس أنك ستصبحين دكتورة؟ أعطني الورقة واغربي عن وجهي.

- ولماذا لن أصبح دكتورة يا أبي فأنا مجتهدة والأولى في المدرسة دائمًا وأريد أن أكون ناجحة في حياتي ما دمت أملك عقلًا نيرًا وذكية.

بقسوة قال لي:

- لن تحققي شيئا في حياتك وستفشلين كأمك... هيا ابتعدي من أمامي.

أسررتها في نفسي واتجهت إلى غرفتي لألعب مع أمل قليلًا عسى أن يبدلنا ربنا خيرًا من هذه الحياة التي نعيشها مع رجل بدأت أشك أن يكون أبي.

جاءت إلينا أمي كعادتها كل ليلة لتطمئن علينا وتتلوا علينا بعضًا من آيات الرحمان للنوم في راحة وأمان.

أبي وأمي شخصان لا يشبهان بعضهما في أي شيء، إنهما ضد التيار، عكس بعض تماما، ولا أفهم كيف رضي جدي أن يزوج ابنته الطيبة، الهادئة، المسالمة لرجل لا رحمة في قلبه، لا يعرف حتى الطريق إلى الله، فأنا لم يسبق لي أن رأيته يصلي يومًا، حتى رمضان يصومه بصعوبة ويعد الأيام له لينتهي.

حتى الله لا يحبه فجعله في طغيانه يتمادى فلا أظن أن نهايته ستكون على خير؛ فارتكاب الذنوب إما يوقظ فينا الضمير فنصبح على ما فعلنا من النادمين، فنهرع لطلب التوبة والغفران لننعم بالخلاص. أو تصبح أفئدتنا لا ترى نور الهداية فنعيش في ظلام الآثام تائهين وسط الضلالة. وعندها فلنتحمل العقاب.

وهذا ما كان عليه أبي، روحه ملطخة بالخطايا.

*****

الفصل الثاني

فمرة واحدة من الطيبة تحولك إلى لا شيء.

إن كسر أحد ما ضرسًا لك اكسر له فكه.

لا تحاول أن تجعل الناس يحبونك، حاول أن تجعلهم يخشونك، لا تسامح.

من رواية فقير الله ل نيكولاس كازنتزاكيس

استيقظنا باكرًا فأخدتنا أمي -أنا وأمل- معها إلى أختها عزيزة لتعطيها نقودًا تشتري لي بها كتبًا جديدة. فخالتي عزيزة هي نافذة الإغاثة التي تلجأ إليها أمي كلما وقعت في ضيق. فالإخوة هم حبل النجاة الذي لا ينقطع، والعطاء الذي لا يتبعه مَنٌّ ولا أذى، والكهف الذي نأوي إليه عندما نشعر بخطر ما.

وهي صراحة لم تكن تبخل على أمي في شيء، لكن كانت لها تصرفات غريبة أحيانا كأن تطلب مني ومن أختي أن لا نلمس شيئًا في منزلها، وأن لا نلعب بألعاب أبنائها، وأن لا نحاول الاختلاط بهم كأنهم النخبة من أهل المدينة ونحن الفقراء الذين لا قيمة لهم. لكنني كنت أؤمن أن الزمان يدور ومن يكون يومًا على القمة سيغدوا يومًا آخر في السفح.

فمن يرى نفسه فوق الجميع يسقط تحت الأقدام فيداس عليه.

طلبت مني أمي أن أمسك بأمل وأن لا نتحرك من مكاننا بينما تتحدث هي وخالتي على انفراد في الغرفة المجاورة. أطعتها ولم ننبس بحركة.

أطالا البقاء في الداخل الأمر الذي أدخل الريبة لي وبما أنني فضولية نوعا ما قمت وتسللت وأخذت أنصت لما يقولانه

قالت خالتي لأمي:

- خذي هذا المبلغ يا مريم، سيغنيكِ لفترة لا بأس بها أحضري للبنتين ثيابًا جديدة وكل شيء يلزمهما وأنت كذلك لقد أهملتِ نفسكِ كثيرًا انظري لنفسك إنك في حالة يرثى لها.

أجابتها أمي:

- أشكرك يا عزيزة لا أدري صراحة ما كان قد يصيبني لولا وجودك في حياتي فأنت تحملين همي منذ أن رحل عنا أبي عكس إخوتي كأنني غير موجودة في حياتهم، حتى حقي في الميراث حرموني منه وأنا التي لم تطالب بشيء يوما. يعاقبونني على غلط اقترفته في لحظة طيش، في فترة مراهقة لم أكن أفقه شيئا. صدقت الكذب وغلبت عليّ شهوتي فضعت، وها أنا أدفع الثمن غاليا وأنا التي لا أستحق كل هذا.

بنبرة مليئة بالحزن ردت خالتي:

- أنت لم تخطئي ولم ترتكبي جرمًا وأبي صحح الغلط بكارثة فهو لم يكن مجبرًا على أن يزوجك بهذا الحثالة حسن كأنه الرجل الوحيد في العالم.

قاطعتها أمي بكلامها:

- "لكن من كان سيوافق على الزواج بواحدة سلمت شرفها لرجل ظنت أنه يحبها فاستغل طيبتها وهي التي تخاف أن تقول كلمة "لا"؟ خوفي من عصيان أبي جعلني أقبل بقراره لأنني كنت في وضع لا يسمح لي بأن أعارض أو أختار. فالمرء عندما تكسره عائلته في

الوقت الذي يحتاج منهم دعمهم يصبح غير قادر على الاستمرار أبدا لأن من يمدونه بالقوة كانوا أول من تخلوا عنه. وهذا ما فعله أبوكِ وإخوتك معي، عندما وقعت حفروا لي قبرا ليواروا فيه دناستي، وقبري كان "حسن"، والكفن هو بناتي. فالشرف مرتبط برحم به دم يثبت طهارته وأنا تخليت عن عذريتي باسم الحب فجلدني الزمن بسوط الندم.

كلما تذكرت يحيى وكيف أهان حياتي كرهت نفسي كثيرا. أنتِ لا تدرين أنني فكرت في الانتحار آلاف المرات لكنني كنت جبانة حتى في القيام بهذا.

معرفتي بيحيى كانت محض صدفة فلقد رأيته في جنازة أمي رفقة والده الذي كان صديقًا لأبي. بعدها بثلاثة أيام وجدته ينتظرني أمام باب المدرسة وقال إنه أراد الاطمئنان عن حالي لأنه رآني منهارة يوم الجنازة. لا يدرك أن الحياة تصبح سوداء عندما تغادرها أمهاتنا، فهن الألوان والحب والأمان.

تطورت علاقتنا بسرعة وأحببته فأنا كنت في مرحلة أحتاج فيها للاحتواء، فأنا الفتاة الصغيرة بينكم التي ظلت لوحدها بعدما غادرتها روحها، فأمي كانت أنفاسي حتى لو لم تحضنني يومًا فأنا أسامحها.

حتى جاء في أحد الأيام يطلب مني أن أرافقه للمنزل لأتعرف على والدته. لم أشك أنه كان يخدع عقلي الغبي. ذهبت معه ولم نجد أحدًا. توهني بالكلام وأخذ يتقرب مني ويلمس كل جزء من جسمي. شعرت بشيء جميل بداخلي، أعجبتني قبلاته واستسلمت له

بنشوة سافرت بي إلى عالم ثان. لم يمارس معي يومها جنسًا كاملًا فهو كان ذكيًّا، لقد أسقاني جرعة من مخدر كان يتقن استخدامه وجعلني أنا من أطلبه ثانية.

عدت للمنزل وبداخلي فرحة لا توصف فلأول مرة أحدهم يقبلني، يداعب جسدي ويشعل فتيل النشوة بي. طوال الليل حينها وأنا أتحسس جسمي وأبتسم فناره كانت لهيبها تلسعني.

كررنا اللقاء في المنزل أكثر من مرة وكنت قد أتقنت فنون الجنس معه بلذة، فنحن كنا نمارسه بشكل سطحي ظنًّا مني أنه يخاف على سمعتي. إلى أن فقدت سيطرتي على نفسي معه في أحد الأيام فالمضاجعة من فوق لم تعد تشفي غليلي وأردت المزيد لأنني أحببته وأردت أن أهديه كلي ليصبح لي وملكي؛ فحصل ما أنا الآن غارقة في الوحل بسببه.

بعدها اختفى يحيى نهائيًّا إلى أن سألت عنه أبي فقال لي أنه سافر إلى فرنسا ليعيش هناك، أغمي علي واكتشف أمري عندما ذهبتم بي للمستشفى وأخبركم الطبيب أنني حامل. فقد أبي صوابه ورأيت في عينيه رغبة في قتلي والتخلص مني. اتفق مع الدكتور وقام بإجراء عملية إجهاض لي، لم أحزن وقتها على الطفل الذي قتل في أحشائي.

لكنني ومنذ أن تزوجت حسن وأنا أكره جسدي.. لم أمارس معه يوما الجنس باستمتاع.. طرقه في المضاجعة كئيبة لا روح فيها.. رائحته تكتم على أنفاسي خصوصا عندما يكون ثملًا... يراني كدمية لا إحساس لها يفرغ فيها كبته وعندما ينتهي يستدير للنوم. أسرع

إلى الحمام وأغتسل جيدا كي أتخلص من بقاياه، من رائحته، لمساته، وكل شيء سيلتصق بجسمي.... لكن أحيانا فكرت مع نفسي وقلت إنه لدي حياة وأحلام ورغبات كأي امرأة تبحث عن الكمال عندما يرمى بها في سلة المهملات... فكرت أن أخونه؛ الخيانة كلمة صعبة صحيح لكنها ربما تكون الدواء لدائي بما أنه ورمي الخبيث الملتصق بي أبد الدهر... فكرت يا أختي أن أجد سعادتي من ورائه وأهدي نفسي لشخص يشعرني بقيمتي؛ بأنوثتي، بكياني وبهذا أكون قد خففت معاناتي وأبدلها بمتعة تطفئ نار تعاستي... لكنني كنت جبانة أو بمعنى أصح لم أقوَ على تحمل آثام أخرى... فالانتقام يضر صاحبه لا الآخرين وهو لا يستحق أن أنتقم من نفسي بسببه فهو ليس سوى ظل رجل... فالرجال قوامون ومنصفون وليسوا ظالمين وهالكين للمرأة.. فمن يستقوَ على النساء لا يجد الخير أبدًا.

قالت خالتي عزيزة وهي تمسح دموعها:

- حسنا لننسَ هذا كله يا أختي فلا ندري ماذا يخبئ لنا القدر بعد ولا تنسي أن الله أنعم عليكِ بفتاتين كالقمر ستكونان يوما السند لكِ في المستقبل. لكن يا مريم في كلامك أشياء كثيرة كنت أجهلها رغم أنني أختك الكبرى.

ردت والدتي:

- لأنك يا أختي الكبرى لم تكوني يوما مهتمة لتفاصيلي في مرحلة كنت أبحث كثيرًا عنك لتقفي معي، كنت أراك القشة التي ستنقذني

من بطش والدي وقساوة إخوتي لكنك خذلتني مثلهم ولا ألومك أبدا، لكنها ستبقى حسرة في قلبي أسرها ليوم الدين.....

بتنهيدة من ألم أكملت:

- انسي الموضوع فلوم الماضي لن يفيدنا في شيء ما دمنا نحن من صنعناه. أتعلمين شيئًا أخيرًا؟ لقد اشتقت لطفلي الذي لم أحبل به سوى أسابيع قليلة لو أنه عاش لكان أكبر من وردة الآن التي كل يوم أشعر بتأنيب الضمير تجاهها، تبلغ من العمر خمس عشرة سنة وتحيا أتعس سنين حياتها بسببي.

عدت مسرعة لمكاني وأنا التي تمنيت لو أصابني الصمم يومها.

خرجت أمي وأخذتنا إلى السوق، اشترت لنا كل ما نحتاجه دون أن تفكر في أن تشتري ولو جوارب لنفسها.

وأنا مستلقية على سريري أخذت أفكر كثيرًا فيما سمعت، لا أدري لكنني شعرت بالحزن تجاه والدتي فهي لا تستحق كل هذا الظلم لهذا وعدت نفسي أنني سأعوضها عن كل ما مرت به، ولن أسمح لأحد بأن يكسرها ثانية.

ربما حياتي لم تهدني استقرارا وأمانًا؛ لكنها صنعت مني شخصية قوية في سن من المفروض أن تكون أكبر مشاكلي فيه هو عدم قدرتي على حل واجباتي المدرسية.

بعد مرور سنوات

"ذلك الألم الدقيق الذي لا اسم له ولا تبرير يخترقني حتى العظم بلحظاته الكاوية"

غادة السمان

أتذكر التفاصيل بحدة فما حدث وشم على جدران قلبي لا ينمحي.... فنحن ربما نغفو عن هفوات البعض ونغفر خطايا البعض، لكننا لا نقوى على نسيان الذل وتحمل الإهانة وتقبل البؤس كرفيقٍ لنا مدى الدهر. يكفينا أن نعاني مرة واحدة في حياتنا لا أن نرضاها طيلة العمر.

كان أبي ليلتها قد بلغ ذروة الثمالة فأخد يضرب أمي بشكل لا يوصف، حاولت أمي أن تدافع عن نفسها لكنها لم تقوَ على أن تردع الوحش الذي كان أمامها.

لا أدري أين كان عقلها عندما فكرت أن تهدده بحرق نفسها.

توسلتُ إليها أن تترك الغاز جانبا وتفكر في أمل وأنا، لكنها كانت في حالة غريبة لا ترى أمامها سوى الموت. فالموت يظل الحل الأمثل لإنهاء كل الألم في وجه من لا يملك شيئًا ليخسره.

بكل ما تملك من قوة صرخت في وجه أبي وأعلنت تمردها، لعنت وجوده في حياتها بعدد السنين التي قضتها معه قائلة إنه لو أشعرها بالحب مرة واحدة لأصبحت جارية بين يديه، لو أنه احتواها لما كانت حياتهما بهذا الجحيم. فأغلب المشكلات يمكن أن ننهيها بكلمة لكن الكبرياء والجحود يمنعنا.

حاول أبي أن يهدئ من روعها ويعتذر، لكنها أبت أن تتراجع، كانت ترتجف بشكل هستيري، وطوفان من الدموع تنصهر فوق وجنتيها، أعمى الغضب بصيرتها، والقهر استولى عليها فلم تعد تدري ما هي فاعلة.

لحظة فارقة بين حياتين؛ بين حياة كالجحيم وبين جحيم ستحيا فيه خالدة إذا تكلل انتحارها بالنجاح.

حضنتني وأمل بشدة وأوصتني بأن أسامحها فضعفها حطمها.

ترددت مرارًا... كانت تبحث عن الأمان.. عيناها تطوف في المكان كأنها تنتظر شيئا ما.

ألستنا نطقت شعرًا ونحن نحاول استدراجها للهدوء لكن بلا جدوى، تشبثت بقرارها وفعلا رشت الغاز فوق جسدها وأشعلت النار فيها.

كانت لحظة لا توصف، كرة من النار تترنح أمامنا وتصرخ:

"أنقدوني.. الرحمة يا ربي"

هلع مفجع وألم يدمي القلوب.... شمعتي التي تضوي أيامي تحترق أمامي ولست بقادرة على التحرك فأغلال الخوف كبلتني.. فقط الموت حاضر بيننا ينتظر قبض روحها.

أسرع أبي ورمى بطانية عليها محاولا إطفاء النار التي غطتها فلم نسمع حسيسا لها.

زارني الفراق حينها..

فراق تعمد قطع الشجرة التي أنا غصن فيها..

فراق أراد أن يحرمني من الأمان ويذرني عرضة للوحدة.

فراق اشتهى طعم التلذذ بحزني وحرماني ممن تراضي وتهون ونتخذ من حضنها كهفًا يقينا من غدر الزمان.

أيقظني من صدمتي صوت أمل وهي تنتحب بالبكاء بعدما صدر منها صراخ زعزع جدران البيت قائلة:

- " أمي لا ترحلي أرجوكِ لا تتركيني وحدي فأنا يتيمة من دونك"

فرح وقرح في ذات اللحظة؛ فحتى عندما تتكرم علينا الفرحة وتطرق بابنا يتسلل من تحتها الحزن خلسة لينكد علينا كأنه يستخسر علينا الضحكة.

حظ بائس يلاحق أمل فحتى فرحتها باستعادة صوتها لاذ بها انتحار أمي بالفرار فلم نستطع أن نسعد قلبها المسكين.

أخذنا أمي إلى المستشفى؛ أصيبت بحروق من الدرجة الثانية فالطبيب قال لنا إننا أسعفناها في الوقت المناسب قبل أن تخترق النار جسدها من الداخل. ولنعترف أن الفضل هذه المرة كان لأبي فهو من سارع في وضع بطانية لإخماد النار من جثتها التي كادت أن تصير رمادًا لولا ستر الله.

الضغط يولد الانفجار؛ وهذا ما جعل أمي تقدم على حرق نفسها لأنها كتمت في قلبها تراكمات كثيرة استحملتها فلم يعد هناك داعٍ للبقاء. فبموتها هي ستكون عاقبت نفسها وعاقبت زوجها على العذاب الذي أسقاها بئرًا منه؛ وعاقبت كذلك عائلتها التي تخلت عنها. ربما ظنت أنها هكذا سيعرفون قيمتها ويعززونها أكثر، ففكرة الانتحار لا تأتي عبثا بل عندما يصبح المرء لا يرى خيرا فيمن حوله.

عندما يصبح ضحية الوحدة التي لم يخترها، عندما تنهال عليه الحياة بالمصائب فيركض ليطرق أبواب من أقسموا له على البقاء مهما اشتدت الظروف فيجد جميع الأبواب مؤصدة فيقرر الرحيل على أساس أن رحيله سيحدث الفرق والحقيقة أن قرار الرحيل كان ضعفا.

ضعف المواجهة والصمود.

ضعف الإيمان بالله الذي لا يغلق بابه أمام عباده خصوصا عندما تسكنهم الحيرة ويشملهم الضياع.

ضعف القدرة على البدء من جديد وإعادة ترتيب الأشخاص في حياتنا. فالخطأ الذي نرتكبه هو تمادينا في نقش تماثيل المثالية لمن نعرفهم وتصديق وعودهم فنبني بيننا وبين المنطق صرحًا من الأكاذيب، لنسقط بعدها من سابع سماء إلى الواقع الحق.

عانت أمي كثيرًا من تلك الحروق؛ جسمها كان مليئًا بالفقاقيع التي بداخلها قيح يخرج منها، واحمرار يغطيها وشعور بالألم عند لمس الجلد.

كانت آثار الحروق بشعة، تداويها كي تندمل بأسرع وقت ممكن، مرت بفترة لم تكن بالسهلة، لكنها تحملت لتنهض من جديد ظنًّا منها أنها تخلت عن رداء الضعف الذي شل عزيمتها ووضعها في خانة الخنوع لكل من عرفتهم في حياتها. فمن حولنا يستمتعون برؤيتنا نتنازل لأجلهم ما دام هذا يخدم مصلحتهم.

كان العلاج باهظا لكن خالتي تكلفت بكل شيء رغم أنها لم تأتِ لزيارتها في المستشفى، لم يراودها قلبها عن أختها التي وصلت لمرحلة الانتحار، لم يضق صدرها عليها ولم يباغتها الحنين، كانت جبارة، قلبها قاسٍ وتحب نفسها كثيرًا لذلك لم تكترث لأمر والدتي ولم تأبه لحالها... أحسست بحزن أمي حينها، رأيت عينيها وهي تراقب باب غرفة المستشفى تنتظر دلوفها عليها؛ ففي لحظات كهذه نحتاج لأسرة نحتمي بها ونرى قيمتنا في قلوبها، نرتمي بين أحضانها لنهرب من أوجاع العالم، وتلملم أشتاتنا بكلامها الداعم لنا.

كانت أياما قاسية عاشتها، معركة صعبة خاضتها بينها وبين نفسها. صراع بين الندم والألم والخوف، أيام رأت فيها الموت وعانقت الوحدة. فأنا وأختي لم نكن نبلغ من العمر عتيا يجعلنا بقادرتين على فهمها.

عندما استطاعت الاستغناء عن السرير أول شيء قامت به هو تحطيم كل المرايا الموجودة في المنزل، كسرتها وهي تصرخ عاليا والدموع تتساقط من عينيها: "لقد هدمتني يا أبي، دمرتني وأنا التي لا تستحق كل هذا العذاب، أمقتك حقًّا".

سقطت أرضًا وهي تكرر أنها لا تستحق كل هذا الألم فقد طال انتظارها للفرج ولم تظهر ملامحه أبدا.

حالة من الاكتئاب لازمتها، نأتي أنا وأمل للجلوس بجوارها تتركنا وتغادر، لا تشارك معنا الطعام ولا تكترث لأمرنا، تتجاهل وجودنا

كأنها تهرب منا أو تلومنا على شيء لم أفهمه حتى الآن. إنسانة أخرى تعيش معنا، شبح فقط لا أثر له.. لا اهتمام ولا كلام، صمت رهيب استولى عليها، فرغم كل شيء كانت تملأ البيت بالحياة تحاول خلق جو لطيف بيننا في غياب أبي كي لا نشعر بالغربة ونحن مع بعض، حتى أضحت هي الغريبة بيننا. روحها باهتة، لا إحساس يحركها، مات كل جميل بداخلها حتى ذبلت ملامحها.

عقل شارد وتيه وسط أزقة التفكير الملغوم بالأسى. شظايا هي من انفجار اغتيل فيه كل أمل حاربت من أجل بقائه بداخلها.

وقت انتظرت فيه كثيرًا أن تطرق بابها أختها عزيزة، تأتي لتطمئن عليها وتضع فيها شيئا من بواقي العائلة تحسسها بانتمائها لهم لكنها لم تأتِ.

كانت جاحدة معها بطريقة لا تتصور؛ لم تفكر فيها ولو قليلا، لا ننكر أنها تحملت مصاريف المشفى والعلاج وحتى بعد هذا لم تبخل في إرسال كل ما يلزمنا للبيت، لكن الحرمان الأخوي الذي أذاقت أمي منه كان قاسيًا. أن نعتني بأرواح بعض هذا هو الأهم. وليذهب المال إلى الجحيم لأنه لن يعوضنا بما نفقده.

اضطرت أمي إلى ارتداء النقاب بعدها لأن بعض الندوب في وجهها لم تمحَ، رغم أنني لم أرَ داعيا لهذا فهي لم تصب بحروق خطيرة لهذه الدرجة. لكن هي لم تكن متصالحة مع شكلها فهي جميلة للغاية، شعر أسود كالحرير وبشرة بيضاء تسر الناظرين، عيناها زينهما الخالق بلون أخضر يسلب العقول. أما جسدها

فنساء الحي كلهن يحسدنها عليه لما يحمل من تفاصيل تبرز مفاتنها.

هي لم تتقبل نفسها بعد الحادث فقررت وضع حجاب بينها وبين الناس لتتفادى الكلام الذي يؤذي الروح ويوقظ الجروح.

لكن وبغض النظر عن كل هذا السوء فنحن كنا فرحين بما آتانا الله من فضله بعدما عادت أمل للكلام. كانت معجزة، لطف خفي تنجبه لنا المحن لنصبر على ما أصابنا ويزداد إيماننا لننجو بقلوب راضية.

في أحد الليالي تعجبنا لأمر أبي الذي أتى بخروف راغبًا في ذبحه وتقديمه صدقة للفقراء ليشكر الله على أنه حمى أمي وأنقذها، وعلى استرجاع أمل لصوتها وهو الذي لم يشارك معها الكلام منذ أن كان السبب في ضياعه. كندم كان ينخر فؤاده لكنه ليس بقادر على الاعتذار لما يرى فيه من انتقاص من رجولته لا يدرك أن الاعتراف بالذنب يهون الألم.

رغم هذا ظل الشرخ كبيرًا بين أبي وأمل حتى تحول بعدها لنفور زعزع ركن مكان الأبوة في قلبها.

بعدما استعادت النطق بدأ التمرد يظهر جليًّا في أفعالها. لم ترغب في أن تدرس قط، متحججة بأن كل من في سنها يدرسون الآن في الأولى إعدادي فكيف لها أن تجلس في صفوف الابتدائي بعد سنين من الانقطاع بسبب عدم قدرتها على النطق وتنمر الأطفال عليها بعدما حاولنا إرسالها إلى المدرسة على أساس أن

تنسجم وتنسى ما حدث. لكنها رفضت الاستمرار بدعوى الاستهزاء الذي تعرضت له من طرف زملائها في الفصل ونعتها بالبكماء.

فالعقد التي تتكون في الطفولة تشوه شخصية الإنسان عندما يغدو يافعًا، فهي تحسسه دائمًا بالنقص فيحاول أن يكمله بأشياء تجعل منه محط اهتمام الجميع حتى وإن كانت هذه الأشياء تهدمه لا ترفع من شأنه أبدًا.

*****

الفصل الثالث

"الندم يؤنب ضمائرنا كثيرًا، فإما يضعنا أمام التغيير أو يجهر صارخًا فينا أن لا شيء يستحق أن نندم لأجله ما دام الفعل لم نكن نحن من اخترنا القيام به".

حالة والدي أصابتنا بالذهول، رجل جديد تعرفنا إليه. أصبح مسؤولًا عنا ومجتهدًا في أن يتغير فبعدما تماثلت أمي للشفاء تمامًا أضحى مهتمًّا بها ولم يعد قاسيًا معها، كان وجهًا آخر لعملة لم نعهدها. حتى إنه امتنع عن إحضار أصدقائه إلى المنزل، فلقد كان متعودًا مرة أو مرتين على أن يأتي برفاقه الثلاثة للسهر والشرب وكان يجلس معهم في غرفة في الطابق العلوي مانعًا إيانا من الاقتراب.

أما تعامله معي فقد اعتمد فيه منهجًا آخر، فلقد كنت ورقة الحظ بالنسبة له لما أقوم به من عمل يخدم صالحه، فأنا هي من تهديه الربح بفضل توقعاتي التي لم تخب إلا نادرًا جدًّا. ما عساي أن أفعل وأنا التي أجبرني على ترك دراستي عندما اقتربت من السنة النهائية في المرحلة الثانوية ليجردني من أحلام ارتديتها على أساس أنها هي من ستنقذني من مستنقعي هذا. تركني عارية بين أرصفة الحرمان.

بعد حادثة أمي توترت نفسيتي كثيرا، اشتدت عليا الأيام بقوة خصوصا عندما غادرت مدرستي بعدم رضاي وأنا التي ظننت أن أمي ستفعل شيئًا لأجلي كأن تقف ضد أبي عندما قرر كسر حياتي بهذا الشكل، لكنها لم تحرك ساكنا ربما لأن حالتها حينها كانت تعج بالحزن والأسى، لكن هذا لا يشفع لها عدم وقوفها بجانبي لأنني أعدها عصاي التي أتوكأ عليها وأهش بها على مصائبي لتختفي. وهنا بدأ صرح الحب الذي بنيته في قلبي لأمي ينهار.

فالأمان يولد عندما ترى تضحية من الآخرين لك، لا من أناس وضعوك تحت مقصلة لتعدم كل الأشياء الجميلة في حياتك. عقاب قاس ومجحف في حق أرواح تدفع ثمن أخطاء غيرها لا لشيء فقط لأنها تنتمي إليهم.....

عاش أبي في كنف التسويف والكسل متوكلا على النقود التي يقتاتها من القمار. يقفل محله بالأسابيع حتى خسر جميع زبائنه بسبب عدم فتحه لمكان رزقه رغم أنه كان يتقن عمله بشدة فهو يملك حرفة يأكل منها الشهد لولا قلة عقله، إنه ميكانيكي محترف يصلح أي سيارة مهما صعب عطلها لذلك كان يحبه جدي كما أخبرتني أمي قديمًا لما له من فضل في كسب عملاء له بالأضعاف بفضل عمله الذي لا يعلى عليه بغض النظر عن عاداته السيئة.

أما بخصوص المحل فهو كان هدية من جدي لأبي بعدما تزوج ابنته على أساس أنه سيستطيع بناء عمل خاص به اعتمادًا على مهارته في الحرفة وهكذا سيكبر صيته يوما بعد يوم ويحقق ما حققه جدي وأكثر، ناسيًا أن من يستلذ بالحرام يصبح عبدًا له فتزول منه جميع النعم فلا يصل لشيء في حياته.

أشبعنا بطوننا بأكلنا للنار على يدي والدي الذي ساقنا إلى الهلاك دون تردد.

والأغرب أن أمي اعتنقت مبدأ اللا مبالاة بشكل عكسي. لم أفرق بين ما إذا كانت قد استسلمت لنوع الحياة مع أبي أم أنها لم تعد تريد خوض معارك لم تفز بأي واحدة منها قط، لأنها ببساطة لم تكن تملك أي سلاح لتنهي النزال بانتصار يفرحها.

مرت أيام طويلة وحالنا متدهور لا أساس له. عاد أبي لما كان عليه فلقد تعب المسكين من تمثيل دور لا يشبهه ولم يتقنه أصلا. عانيت مع أمل كثيرًا فهي لا تسمع الكلام ولا ترضخ للأوامر وعندما أطلب من أمي أن توقفها ترد عليا قائلة إنها طفلة فلنتركها تفعل ما

تريد. فتمردها كان واضحًا وكان لا بد من ردعها قبل أن تتحول لبركان يحرق كل شيء عندما ينفجر.

كآبة استوطنت المنزل حتى صرنا لاجئين نبحث عن ملاذ يأوينا.

أغلب أوقاتي أصبحت أقضيها في السطح بعدما أنهي أشغال البيت كلها التي تعد كواجبات يومية مجبرة على القيام بها.

بيت مكون من طابقين إضافة إلى السطح، يقع في حي نظيف لا يقطنه طبعا الأغنياء لكن سكانه ميسورو الحال، فقط نحن أقلهم. يغلب على منزلنا الطابع التقليدي المغربي لما يحمله من لمسة عريقة، زليج في الجدران كالفسيفساء مرصوصة باعتناء وأقواس على أبواب الغرف زين جبسها بزخارف كأنها منقوشة وأثاث قديم الطراز لكنه ظل محتفظا برونقه نظرا لاعتناء أمي به، فهي لم تستطع تغييره وتجديد تصاميمه بسبب أبي الذي لا يطعمنا أصلًا إلا قليلا، فكل قطعة في البيت هي من جدي الذي جهز كل شيء لأمي والأهم أنه كتب البيت باسمها قبل أن يتوفى وإلا كان قد طردنا أبي من زمان رغم أنه يعده منزله لا أعلم لماذا.

مؤنسي على السطح هو هاتفي.. حياتي أبطالها الملل والرتابة، فكرت في أن أشتغل لكن أبي رفض. لا يلحظ أنني في العشرين من عمري ولي متطلبات كأي فتاة من ملابس ومكياج وأشياء خصوصية، فأنا دائمًا ما أرى فتيات في مثل سني يعتنين بشكلهن، بشعرهن، ببشرتهن وفي كامل أناقتهن، لا أنكر أن شكلي كان فيه الكثير من أمي، جسمي الذي تتناسق فيه مفاتني وانسياب شعري الأسود ولون بشرتي الحنطي والخالة التي استقرت فوق شفتي أضافت لي جمالا يخدمني.

فتاة في ريعان شبابي تغويني الحياة وتبهرني فتنها، كان الهاتف نافذتي على العالم هو من يطلعني على الحياة خارجا، أرى فيه ما لم أستطع عليه. أملك صديقة واحدة جمعت بيننا أسوار المدرسة وطاولات الفصول، تدعى مروة هي الآن في الجامعة تدرس الطب فهذا كان مبتغاها من الإعدادية. كنا ننصت لبعض جيدا عندما نتحدث عن تطلعاتنا للمستقبل لم أكن أعلم أن قاربي سيخرقه الظلم فيغرق وهو لا يزال على الشاطئ. ظلت تزورني بين الفينة والأخرى لانشغالها بدراستها فأنا أتفهم وضعها وأشفق على حالي، حالة من القهر تعتريني عندما تغادر مروة منزلي؛ تجدني أركض إلى غرفتي أوصد بابها بالمفتاح، أمسك المخدة وأدس فيها وجهي وأصرخ عاليا، أذرف من الدمع ما يطفئ حرقتي. أمسح وجهي وأرضى بوضعي وأكمل مسايرة أيامي. كان لي في دراستي مآرب تصل لعنان السماء لكن عكازي أسقطني أرضا فلم أعد قادرة على رفع رأسي لأرى السماء.

دائما ما أراود أمي عن نفسها بأن نذهب لأي مكان لنتخلص من حزن منزلنا، من جدرانه الباردة المليئة بالخوف والألم عسى أن نختلط بالناس، نشعر أننا على قيد الحياة لكنها كانت ترفض بشكل رهيب وقطعي والأدهى أنها لم تكن تتركنا نغادر لوحدنا.

لقد تغيرت كثيرا، ذبلت ملامحها واختفى أملها أعلنت انسحابها في وجه الأيام واستسلمت لواقعها. متناقضة هي توهمنا بأنها قوية وقادرة وعازمة على الواجهة لكن في ذات الحين تعتكف في غرفتها بالساعات، والبكاء مؤنسها........ تلاشت بالألم.

أحاول على قدر المستطاع خلق جو في البيت فيه شيء من المتعة لكن لا حياة لمن تنادي، صم بكم كأنهم قطع أثاث متراصة لا تتحرك.

لقد كانت أمل تفتعل بعض المشاكل لكن لا أحد فيهم كان مهتما لها رغم أنني أحذر أمي مما تقوم به وأوصيها بالتقرب منها فالفتاة يحاوطها الحرمان.

لا دراسة ولا شيء قدم لأمل.. كبرت في فترة كلها كوارث لا من يهتم ولا من يرعى. دائمًا ما أسعى إلى إمساك اللجام بحياتها كي لا تضيع منا...

كان حملا ثقيلا بالنسبة لي لا أملك رفاهية العيش في اطمئنان.

والدتي التي وضعها متدهور ويتطلب رعاية نفسية.

وأمل التي تحتاج لأم وأب أسوياء لتتخطى خوفها وتترعرع في جو صحي يشفيها من أسقام صدماتها.

وأنا التي لا مستقبل لها أنتظر معجزة تهز عرش حياتي. فلا سبب لي لآخذ به كي يرزقني الله أجر السعي.

أما أبي فهو منتهي الصلاحية لا أمل فيه، مكبا على وجهه لا استقامة تنتظره. ذنوب بثقل الجبال يحملها ولا أحد منا قادر على مسامحته، لأن الله لم يقدر علينا الفقر فلقد رزقه من أبواب متفرقة؛ لكن هو من جعل عيشتنا ضنكا، حاوطنا بالضيق من كل جانب وجعل الأيام مرة لا طعم لها.

يغيب طوال اليوم بترك مصروف قليل يقفل الباب وراءه فينسى وجودنا

*****

الفصل الرابع

"لا مفر من الذكريات فهي المرض الذي لا يشفى منها المرء "

دلفت إلى غرفة أمي أدعوها للعشاء فوجدتها شاردة الذهن:

- ما بكِ يا أمي أين يأخذك تفكيرك؟

- تزورنا الذكريات فنتذكر التفاصيل... الليالي الباردة.. الوحدة.. العتمة.. التفكير والحيرة، مشاعر لم نبح بها وقصص لم نكملها للنهاية. أشخاص لم نقوَ على مسحهم من ذاكرتنا ومواقف حددت أماكن البعض في قلوبنا.. نتذكر كل شيء لكننا نمارس النسيان كي نكمل المسير في أحضان الليالي الباردة......

- لم أفهم شيئا يا أمي ما الأمر؟

ردت بدمعة:

- لا داعي لأن تفهمي شيئًا فقط دعيني لوحدي لا أريد الأكل، فأنا أقتات من ذكرياتي.

لقد كانت أمي في حاجة ماسة لمعالجة نفسية لأنها أقدمت على فعل أنجب من عقل ليس بسوي.. عقل تعرض لصدمات أثرت على طريقة تفكيره بشكل سلبي.. صدمات شوهت صورة الحياة وأتلفت منطق الصبر... ومن الطبيعي أنها لن تقوى على تجاوز ما مرت به خصوصا أنها تعيش وسط بيئة كانت السبب في تدميرها كليًّا.

لا أدري كيف سأغير واقعي، توسلت لأبي بأن أبحث عن عمل لكنه كان يرفض في كل مرة. لا نقود ولا حرفة تعلمتها ولا خيار ثالث ألجأ إليه.

تمر الأيام عجاف.. يابسات من الأمل والفرحة... حياة معقدة حقا.

مروة التي كانت تحررني من سجن الوحدة وتزورني أخذها الزمان مني تسأل عني فقط عبر رسائل الواتساب القليلة...

تفكيري في سبل تؤدي بي إلى النجاة تبوء بالفشل، ما دمت غير قادرة حتى على تخطي عتبة منزلنا.

تعرفت بعد مدة على رجل أربعيني عبر موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك، وسيم ويملك شخصية قوية أثارتني، يسأل عني كل يوم ويعاملني باهتمام كبير جدًّا. يقول لي دائمًا إنني جميلة، يتغزل بصوري ويأخذني في رحلة خارج أرض الكآبة التي أقطن فيها إلى مكان مفروش بكلام معسول، وسماؤه أحلام وردية.. لم أكن أصدق كلامه لكنني كنت أتخذه كمخدرٍ لي يساعدني على نسيان واقعي عندما أضع رأسي على وسادتي.

متزوج ويملك طفلين لم يطلعني على أسمائهما ولا أعمارهما ولم أهتم أنا أصلا بتفاصيله، فهو مجرد عابر ستنتهي أيامه معي قريبا كمن سبقه.

لم أفتح الواتساب والفيسبوك لأيام بسبب انهيار عصبي باغت أمي فجأة وبلا سابق إنذار. لم يكن أبي موجودًا في المنزل وقتها، حملتُ أمي وأخذتها للمشفى ومعي أمل. مستشفى بلا رحمة، بهو المستعجلات مليء بالمرضى والمصابين.. فوضى وصراخ ورائحة الدم تفوح في المكان.. أناس يصرخون وجعًا ولا أحد مكترث لأمرهم.. الممرضات كأنهن عارضات أزياء، عابرات سبيل، يرون

فقط من يضع لهن مبلغًا في أيديهن عندها يعترفن بعملهن، فنحن الفقراء لا قيمة لنا عندما يلدغنا المرض ويضعنا القدر تحت مستشفيات الدولة المميتة التي لا تعترف بحق التطبيب للجميع، فقط أطباء لا قلوب لهم يرون المرضى جثثا أمامهم لا يستحقون الحياة ما دامت جيوبهم خاوية لا دراهم فيها.

انتظرنا طويلًا، وأمي تنتابها حالة من البكاء الهستيري الذي جعل كل الناس تلاحظ وجودنا، إلى أن سمعت شخصًا ما ينادي باسمي، التفت فوجدت مروة.

- ماذا تفعلين هنا أنتِ؟

- إنني أتدرب هنا يا وردة في قسم الجراحة، ولكن أنتِ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

- لقد تعرضت أمي لانهيار عصبي وأتيت بها إلى هنا وللأسف ننتظر منذ ساعات ولم يعرنا أحد أي اهتمام.

- حسنا لا تقلقي تعالي معي.

أخذتني إلى أحد الأطباء والذي كان بعيدًا عن مكان المستعجلات غير آبه بالناس.

قدمتنا له وأوصته بتقديم يد العون لنا على أساس أننا من عائلتها فطلب منا الجلوس؛ أما مروة فاتجهت إلى عملها وأخبرتني أنها ستتصل بي لاحقا.

قام بإعطاء مهدئ لأمي عن طريق حقنة بمشقة الأنفس أخذتها وقام بطرح عدة أسئلة عنها فأخبرته بكل شيء مركزة على محاولة انتحارها.

- اسمعي يا ابنتي، أمك تعاني من اكتئاب حاد أدى إلى انهيار عصبي صامت ومن أعراض هذا المرض: الاضطرابات في النوم والأكل، الانفصال عن العالم، البكاء، الخوف الشديد، البقاء في المنزل وحيدًا وكذا التفكير في الانتحار. سأحيلك إلى مختص نفسي هو صديق لي سيعالج أمك تماما، لا تقلقي المهم أن لا تتركيها وحدها في المنزل وحاولوا أن تبعدوها عن أي ضغوط أو توتر هذه الفترة. وانتبهي ألا تضعي أمامها أو بالقرب منها سكاكين أو أي شيء حاد لسلامتها.

أجبته بدموع حارقة:

- لكنني لا أملك مصاريف حصص الطبيب فمادياتنا لا تسمح بهذا، ألا يوجد طبيب من الدولة نلجأ إليه؟

- نعم يوجد، لكنك ستضطرين للانتظار لأشهر بسب الاكتظاظ، ووضع والدتك لا يسمح بهذا لأنها في حالة صعبة جدًّا. سأقوم بإعطائك بعض المهدئات من عندي كي ترتاح هذه الأيام، هذا كل ما أستطيع القيام به.

عدنا للمنزل، وجدنا أبي نائمًا لم توقظه حركتنا. حضرت أكلًا خفيفًا لنا وأقنعت والدتي أن تأكل ولو قليلًا لتأخد الدواء وتنام.

نامت أمل بجانبها كيتيمة حرمها القدر من الاحتماء تحت ظل أبويها.

تقلبت في سريري كالحمقاء ليلتها وأنا أبحث عن حل.. فكرت في أن أذهب إلى خالتي لكنها انتقلت من بيتها القديم إلى حي جديد خاص بالأغنياء ولا أعرف العنوان أصلا فلقد تنصلت منا كأنّ لا أخت لها.... يا إلهي ماذا سأفعل؟ رأسي سينفجر ولم أصل لخيط ينقذني.

فتحت هاتفي فوجدت رسائل كثيرة من عند فؤاد فبعثت له رسالة صوتية أشرح له سبب غيابي، تأسف لما حصل معي وعرض عليّ المساعدة لكنني رفضت فأنا بالكاد أعرفه وبأي صفة سيقدمها لي أصلًا.

عملت جاهدة على أن تأخذ أمي المهدئات وبالفعل كانت تنصاع لي.

ونحن نتناول الفطور طلبت مني أن أشغل أغنية لوردة الجزائرية بعنوان "حرّمت أحبك"

قلت لها بفرحة: أوامرك يا ست الكل.

ابتسمت ابتسامة جميلة سرقها منها الألم مدة طويلة وأخذت تغني معها، لكنها كانت تكرر مقطعًا بحزن تقول فيه:

" ظلمت قلبي وتقول بريء.... وسايبني وحدي وسط الطريق"

انتهت الأغنية ثم قالت لي:

- إنني أعشق وردة كثيرًا فأغانيها دائمًا ما آنست وحدتي لهذا أسميتك وردة نسبة لها؛ لكنني لم أتصور أن تسقى وردتي بالحزن هكذا أنا حقًّا آسفة يا ابنتي. حبيبتي أعلم أنني قصرت كثيرًا في حقك أنت وأختك وتركتكما وحيدتين لكن صدقيني إن ضعفي تمكن مني، سلب مني شجاعتي حتى كسرني. أقسم أنني قاومته كثيرًا وجاهدت نفسي على الهرب منه لكنه كان أقوى مني. ضعفي هذا أبعدني حتى عن ربي، لقد أدخل الشكوك فيا وحاوطني من كل جانب، جعلني أرى نفسي أمًّا ناقصة، وعاصية ينتقم منها ربها لأنها أذنبت. شيطاني تمرد علي حتى أحل لي الانتحار فما قمت به حينها لم يكن ردة فعل وقتية؛ بل كان تفكير سنين.

حضنتها مردفة: لا تقلقي يا أمي أنا معك وسنتجاوز هذه المحنة، فقط امنحيني فرصة إخراجك من هذا الوضع وسنقوى مع بعضنا.

قلت لها هذا الكلام وأنا التي كنت في أمس الحاجة إليه خصوصا منها هي.

بين زوايا غرفتي أخذتني رياح الذكريات إلى مرحلة المراهقة التي أزهقت روحها قبل أن أمارسها كباقي الفتيات. لم أجرب ذلك الانفلات ولم تتمرد شخصيتي حتى شككت في أنني أنثى ههههه.

لم أستمتع بجسمي وهو ينضج، لم يروى عطش الحنان بفؤادي... باختصار فقدت لذة المتعة بسني.

ربما لأن مشاكلي وصراعاتي جمدت جانب الإحساس بداخلي حتى خفت أن أصير بلا مشاعر وأصبح أسيرة النقص طوال حياتي.

كبرت ودائمًا ما أقول لنفسي إنني أعاني من جفاف عاطفي فقلبي كصحراء قاحلة لا حب يزرع فيها. نقطة لا يستهان بها فكيف لي أن أحيا وأنا محرومة من العطف والاهتمام وأنا التي على مشارف الواحد والعشرين، فمهما قاومت شر نفسي وإغراءات الأيام فأنا في الأخير سأضعف.

متعتي كانت عندما أستلذ بجسدي وأنا أستحم، أتخيل نفسي في أحضان أحدهم وهو يقبلني ويثير جنوني، وبعد ثوان أجدني أندم وأعاتبني على ما فعلت.

كبت يطاردني ولجام خفت أن يفلت من يدي يوما.

يا إلهي فأنا ينبغي أن أفكر في أشياء أهم، لا في مشاعر لن تسمن حياتي.

*****

الفصل الخامس

" الفقر يردع الإيمان.. يبرج الحرام بزينة الجاهلية
ويحاوط القلوب بالظلام إلى أن يموت الضمير"

تظاهرت بأنني أعاني من صداع وأحتاج للنوم قليلًا في غرفتي بشرط أن لا تزعجني أمل أبدا، كنت على موعد مع فؤاد على مكالمة فيديو. جهزت نفسي فارتديت قميصًا أبيض يبرز صدري مع بنطلون جينز وسرحت شعري ووضعت القليل من أحمر الشفاه الذي أعطتني إياه مروة.

اتصل بي وكان الخجل يسيطر علي، لكنه كان يتقن لغة الغزل ويحبك حروف الحنان بتمكن. لم يكلف نفسه بأن يظهر بأناقته المعتادة كما في صوره بل اكتفى بسروال بسيط وقميص يظهر عضلاته التي كان مهووسا بالاعتناء بها. لكن بعد دقائق معدودة تشاجرت معه بعدما تجاوز حدوده معي وهو يطلب مني أن أريه جزءًا من صدري. جننت وشتمته دون أن أختار ألفاظي وأقفلت الخط في وجهه.

كيف تجرأ على أن يهينني هكذا؟ وغد وسافل وحقير... لعنته في سري ألف مرة ولم أشفِ غليلي، قمت بحظره من الواتساب والفيسبوك وحتى الهاتف كي لا يجمع بيننا حديث مرة أخرى فلقد دنس كل شيء بقذارته.

أخذت أجوب الغرفة وعقلي سينفجر من التفكير في الوضع المقرف الذي عشته في دقائق مع ذلك الوقح فؤاد.

صدمت من موقفه وجننت ليلتها كثيرا، فكيف تخيل لي أنه سيكون معجبا بي فهو متزوج ولديه أطفال فأكيد سيجعلني دمية فقط في حياته يتسلى بها.... آآآآآآه يا لي من فتاة غبية وحمقاء.

أحسست باحتقار حينها فطبعا كان لا بد لي أن أعلم أنه لا يكلمني بحسن نية فلا أحد في هذه الظروف يهب شيئًا مجانيًّا؛ حتى المشاعر أصبحت تباع لمن يدفع أكثر وأنا كان الثمن جسدي.

مر أسبوع والضغط يزداد في المنزل وهذه المرة بغياب أبي عنا لمدة ثلاثة أيام دون معرفتنا أين كان ليعود بحالة يرثى لها أصابتنا بالذهول. استفسرت منه عما هو به وعن عذر غيابه؛ لكنه تجاهلني ونام كالميت. دماغه كوسادة خالية من الهم؛ لم أذكره مرة سألني عن حلمي أو ماذا أريد أن أكون في المستقبل.

أب عاق في حقنا، مهترئ الشخصية منعدم الحس. أريد فقط أن أفهم طريقة تفكيره؛ إن كان لا يحب والدتي فما ذنبنا نحن؟

لماذا لم يتغير عندما أنجبنا؟ فأنا لطالما سمعت أن الآباء يتغيرون للأحسن عندما يرزقون بأبناء؟

لماذا لم يحاول ولو مرة أن يتعرف إلينا، أو أن يتقرب منا فبالود يصبح الشوك وردا وأنا وأمل لم نطلب المستحيل؟

بعد يومين أطلعت أبي على وضع أمي وعن انهيارها المفاجئ وأن الطبيب أكد لي أنها تحتاج لطبيب نفسي يتتبع حالتها لتتجاوز هذه الأزمة. لكنني أراها جيدة الآن فلا داعي للطبيب.

- يا أبي إن نفسيتها متدهورة لا تأكل ولا تنام وطوال الوقت في عالم آخر وهذا مخيف.

باستهتار رد علي:

- حسنًا ماذا تريدين مني الآن؟

- أريدك أن تتكفل بمصاريف علاجها فقط لشهور محددة أرجوك.

بغضب شديد قال:

- ماذا؟ ومن أين لي أنا بالنقود أيتها المتفزلكة فبطونكن الجائعة تأكل كل ما أجني، عليكن اللعنة.

بتوسل:

- إذًا دعني أبحث عن عمل في أي مكان وأتحمل أنا مصاريفها، أرجوك لا ترفض هذه المرة فهي أمي لتراعي الله فيها ولو لمرة.

خرج وكأنه لم يسمع كلامي شاتما إيانا جميعا. كأنه يستلذ بعذابنا هذا، يمكنك أن تشم رائحة كرهه لنا من نظراته.

تأخرت أمل كثيرًا وهي تحضر علبة الشاي من عند البقال مصطفى انتابني القلق فقمت باللحاق بها.

وجدتها في منتصف الطريق والدموع تملأ عينيها، سألتها:

- ما خطبك يا فتاة لماذا تبكين؟

وهي تجهش بالبكاء قالت:

- لقد حاول مصطفى لمس مؤخرتي فشتمته فطردني أمام الجميع وأهانني واصفًا إياي بابنة السكير.

بكل ما بداخلي من غل من رد فعل أبي والقهر الذي يفيض به قلبي توجهت إليه، صرخت في وجهه:

- من أنت لتهين أختي وتلمسها بيدك القذرة يا حثالة، قل لي من أنت؟

ورميت كل الخبز الذي يضعه على منضدة بباب محله على الأرض غير آبهة به؛ فهي أمل ذلك النبض النقي.

تجمهر حشد من الناس حولنا وهو يحملق بي قائلًا:

- أنا لم أفعل شيئا لأختك، ارحلي من هنا وإلا رأيت مني ما لا يعجبك هيا.

بقبضة من غضب أمسكت بقميصه وأردفت:

- أقسم لك لو فكرت فقط في النظر إلى أختي فسأقتلك بيدي هاتين، فلا تلعب معي يا من لعب في مؤخرته أغلب رجال الحي.

كان معروفًا بممارسته للجنس مع الرجال من أجل المتعة، شذوذ لا يطاله أي أذى من أحد، الحي كله على علم بحاله ولا يوجد من يغير المنكر.. ربما الناس أصبحت تمتثل أمام نظرية أنه من لا يؤذيني فعله فلا يتوجب علي التدخل في أمره، فحتى زوجته تعي أن زوجها مثلي جنسي حتى وإن كان يملك ولدين فهو يستهوي ممارسة الرجال له، لكنها لا تستطيع الطلاق منه لأنها لا تملك عائلة سترضى بها أو عملا سيؤمن مستقبلها خصوصا أنها آتية من البادية، والحياة والعرف فيها قاس بالنسبة للمرأة، لا إنصاف في

حقها، والمواجهة معه ستلحق بها الضرر، والسكوت هنا هو الحل ما دام هو من يطعمها ويأويها.

الشذوذ مثل سوسة تنخر المجتمع رويدا رويدا، ولا أدري أين تكمن المتعة عندما يجتمع جسد رجل برجل، عفن وقذارة تمر أمامي عندما أتخيل المنظر فكيف لزوجة مصطفى أن ترضى لنفسها أن تضاجع رجلًا يضاجعه رجال آخرون؟! كيف لها أن تقبل بهذا النوع من الزيجات المقيتة؟ فما دام الرجل قادرًا على الانتصاب والممارسة السليمة مع الجنس الآخر والإنجاب فلما يا ترى يركض وراء شيء ليس فقط بحرام بل هو ملعون ومطرود من رحمة الله إلى الأبد.

هذا الشذوذ ليس سوى مرض نفسي عبارة عن عقد وكبت واضطهاد، خروج عن الطبيعة بأقسى أنواع التمرد.. أحداث أراها أكبر من أن يتقبلها فكري أو أن يحاول تحليلها.. أسمع أشياء غريبة لكنني لا أستوعب أكثرها... لم أستطع فهم لمَ المرء به هذه الحدة من الجبروت المتعالي لدرجة العقوق.

تركته والكل يضحك عليه لكن قهرتي أنا كانت أكبر فأين هو الأب الذي من المفروض أن يدافع عنا ويمزق هذا الوغد إربا إربا الذي تجرأ على فتاة صغيرة تبلغ من العمر الحادية عشر سنة فقط؟

أين من أوصاه الله ونبيه علينا؟

أين من جعلنا عرضة للاستغلال بسبب سوء سمعته وفضائحه التي لا تعد؟

أوصيتها أن لا تخبر أمي بشيء وأن لا تهتم لما جرى فهو لن يعيد هذه الكرة أبدا.

يا رب، ما هذه الأوضاع؟ لا قيمة ولا مال ولا أمان فلتحترق في نار جهنم يا أبي.

مهدئات أمي نفدت فحاولت أن أعوضها بأعشاب طبيعية تهدئ الأعصاب كاليانسون والبابونج الذي اشتريت منها بدراهم قليلة من عند العطار بعدما رفضت مروة أن تدبر لي ولو علبة واحدة من عند الطبيب بحجة أنها تحتاج لوصفة طبية كي تأخذه. لم أجادلها وتفهمت رفضها؛ فعسى أن يفيدها الأعشاب فلا حيلة لي أكثر من هذا، فالضيق يشتد والحال لا يطمئن بوجود غيث عن قريب...

فقر يحاصرني من كل جانب ولا منقذ يخرجني من جب الظلمات... حياتي عبارة عن ركح للأوجاع، مسرحية مكتوبة بحبر من دم لا يكتب سوى الألم.

صحيح أن لا منزل يخلو من المشاكل والخلافات؛ لكن بيتنا كانت مشاكله مصحوبة باللعنة لا حلول لها.

أبي بخطاياه كأنه يقدم قرابين للشيطان لتؤمن له أفخم مكان في جهنم ونحن يسوقنا لموافاته على حساب نتائج أخطائه.

رقم غير معروف يتصل بي أجبت فإذا هو بفؤاد يطلب مني أن أسامحه على ما بدر منه من تصرف سيئ، أنصت له وهو يلقي عليا أعذاره قائلًا:

- إنك فتاة جميلة يا وردة أعجبت بك من أول مرة. أعلم أنك ستقولين أنه يوجد فرق في السن بيننا وبأنني متزوج ولدي أولاد؛ لكنني سأقول لك إنك استطعت تحطيم جدار قلبي بطيبتك، ببراءتك التي أصبحت نادرة في زمن الخيانة وبحسنك الذي يغريني. عندما طلبت منك أن أرى ما يدسه قميصك خلفه لم أكن في وعيي، حالة غريبة اجتاحتني، حرماني من جسد امرأة شل تفكيري فتجرأت عليكِ إنني آسف حقا.

- لكنك متزوج يا فؤاد فكيف تعيش الحرمان مع زوجتك؟

- نعم؛ فأنا متزوج قطعة جليد، مات فيها الإحساس من زمان.. نمارس علاقتنا كأنها واجب يجب علينا أداؤه بسرعة.. خال من الحياة لا روح فيه.

أجبته: حسنا إنني أتفهم وضعك لكن لا تكررها مرة أخرى معي.

بلطف قال:

- أكيد لن أكررها فأنا افتقدتك كثيرًا خلال الفترة التي مرت ولا أريد خسارتك.

امتثلت لفؤاد تدريجيًّا وأمواج كلامه سبحت بي داخل بحر لا شاطئ فيه. عرف تفاصيل حياتي بكاملها واحتياجي للمال الذي جعلني أتنصل من براءتي وأرتدي عباءة الوقاحة. ظننت أنني سأكون عصية عن الترويض وذات شخصية قوية لا يهدمها زلزال لكنني كنت أهون كبيت العنكبوت؛ هزة أرضية زعزعت كياني وانحرفت بي خارج مضمار الشرف.

تلاحمت علاقتنا في إعطاء كل منا ما يحتاج. فأنا أحتاج المال وهو يحتاج للجنس. طبعا لسوء أحوالي لم أكن أستطيع الخروج من المنزل فكنا نمارس ما يريد عبر مكالمات الفيديو ويبعث لي ما أطلبه من نقود دون بخل عبر وكالة تحويل الأموال التي كانت بالقرب مني، فيتطلب مني الأمر دقائق للذهاب وإحضار النقود.

صحيح أنه انتقص من كرامتي لكن جيوبي امتلأت. لم أكن أكلم فؤاد يوميًّا طبعا لكن عندما تغلب عليه شهوته فلا مفر لي منه. أكشف عن أساريري معه رغم مشاعري الهاجعة وغمامة الحزن التي في قلبي؛ لكنني مرغمة ربما هذا هو قدري وأنا أصرفه.

كنت أطاوع فؤاد في رغباته ابتداءً من الكلام إلى الانتهاء بالفعل من رقص ودلع وعري و...... إلى أن نتأوه من اللذة وترتعش أجسامنا بنشوة تروينا. لحظات موجعة أعيشها أنتظر انتهاءها بفارغ الصبر.

تخليت عن أخلاقي ووضعتها في رف النسيان؛ فهي لن تطعمنا ولن تعالج لي أمي ولن توفر ل أمل ما تحتاج.

تغير وضعنا قليلًا وكل النواقص أحضرتها من أكل وثياب ودواء لأمي لحين أن أوفر مصاريف علاجها.

كالعادة لم تأبه لأمري ولم تسأل عن مصدر النقود فهي كليًّا لم تعد تعيش معنا؛ داهمها المرض وأسرها في دهاليزه.

أما أمل فحاولتُ أن أوفر لها هاتفًا وقصصًا ورسومات تسلي بها نفسها إلى أن أرى حلا لقضيتها.

باختصار لقد نثرت الشوك فوق قبري وذهبت.

*****

الفصل السادس

"التراجع عن الذنب يحتاج لقوة الإيمان أما الانصياع له فهو ضعف النفس أمام نزوات الشيطان، وكل حجج التبرير باطلة "

إلى أين تمضين يا وردة؟

لا أدري يا أنا.. تائهة وحبل النجاة منقطع. أتأرجح بين ماضٍ سيئ وواقع أسوأ، أما المستقبل فهو دامس وبوصلة النور التي ستدلني على الطريق الصحيح لا تعمل منذ سنين، فلو كانت تشتغل لما دلتني على سلك هذا الدرب الموحش.

أأنت تلبسين الباطل بالحق لتجعليه الحق في عينيك؟ أم أنك تحاولين تضليل ضميرك؟

كفى... كفى... فأنا لم أفعل هذا برضاي، هم من رموني في البئر، هم من لوثوا قميص طهارتي بدماء الذئاب.. هم من أطفؤوا مشكاة الحياة أمام أعيني... عشت سنين غابرة ولم ينفض أحدهم غبار الهم من قلبي.. لم يلقنوني سوى الخطيئة فمن أين سأتعلم التوبة؟

أعيش بين غيابات الندم والقدم التي ستطأ أرض الخلاص مشلولة.

مللت من فؤاد وهو كذلك، بعدما أشبع ريقه مني لم يعد يجمعنا شيء فاختفى فجأة من حياتي دون أثر. غيابه لم يحدث فرقًا في حياتي فبدل فؤاد أصبح عندي عشرة فلقد حصلت على وظيفة بشهادة جسدي.

تهيأت لمستوى آخر وأصبحت أخرج من المنزل دون حاجتي لأخذ الإذن من والدتي التي صارت تشبه الأنتيكا في المنزل قيمتها كبيرة لكن لا دور لها.

أقابل زبائني في شقق من بعد ما أتعرف عليهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي الذي كان وسيلة اصطيادي لمن سيدفع لي أكثر.

اهتممت بمظهري أكثر لكن ليس لحد إثارة الشبهات فبراءة ملامحي لم تخفيها آثامي. جسمي أنظفه، أزيل الشعر والشوائب من عليه، أعطره وأحافظ على رونقه فهو رأس مالي وسلعتي.. ولأضمن مبلغًا يسد رمق جوعي لأيام كان لا بد لي من إيجاد طرق لتعلم الجنس فهو حرفتي الآن ومطالبة بإتقانه؛ التجأت لمشاهدة الأفلام الإباحية لقلة خبرتي حتى أدمنتها...

معروفة بارتدائي للجلابة المغربية الفاخرة فهي تليق بي وتبرز أنوثتي وتثير شهوة الرجال. كنت الوسادة التي تريح الرجال من عناء تعبهم. جسدي أضحى كأرض يمشي فوقها قطيع جائع؛ إلى أن أتاني زبون من نوع آخر كان علي بابا الذي فتح كهف عذريتي.

كان عرضًا مغريًا من رجل مقتدر ماليًّا يدعى عبد الله، خليجي الأصل يأتي إلى المغرب ليفرج عن نفسه. يحب النساء حبًّا جمًّا ويقع صريع الهوى أمام أي فتاة بكر. زواج متعة لأشهر معدودة مقابل مبلغ كبير من المال....

هوت أمي إلى حافة الاكتئاب وليس هنالك حل سوى إدخالها مستشفى للأمراض النفسية، ثارت حالتها والجنون سيقتلع جذور عقلها. أحترق كجمرة فوق أتون الألم حين أراها وهي تمضغ الأوهام وتأكل الحسرة على ما جرى لها. غلالات من الرعب تجتاحها تارة، وبكاء لا منقطع يصاحبها ليلًا ونهارًا.

لا أحد يقوى على رؤية الجنة وهي تصبح كالصريم، لذلك وافقت على بيع نفسي مقابل علاج أمي وتأمين مستقبل لأختي.

أربعة ملايين استلمتها من عبد الله يوم تسليم ممتلكاتي له. مبلغ سيفتح لي النوافذ المغلقة. وشخص سيوفر لي ما أحتاج ببذخ.

فستان أبيض وعرس... كرامة وفخر... نخوة واعتزاز بالشرف.. غشاء بكارة لا يدوس بلاطه سوى رجل على سنة الله ورسوله، وقطعة قماش أبيض أزينها بدماء عذريتي لتكون دليلًا على عفتي. هذا كان هو حلمي لأجد جدار بكارتي انفض بعد بضع دقائق فوق سرير مارس فوقه المئات رغباتهم.

لم أستطعم لذة الجماع.. فهو رجل يلهث كالكلب وحده عذبني إلى أن استطاع تمرير قضيبه في رحمي.. أنفاسه كلها كبت ومضاجعته منطفئة اللهيب.. فكان لا بد لي من إثارته طوال الممارسة ليظل قضيبه مستيقظًا قادرًا على تلبية مهامه.

لا يمكنني إبداء أي شعور بأنه ناقص فالزبون دائمًا أسد ما دام يدفع دون حساب.

بعد انتهائنا تراجعت للوراء دسست وجهي بين أرجلي واحتقرت نفسي كثيرًا لم أذرف الدموع لأنني أنا من اخترت، إحساس بالعهر والنجاسة اعتراني. لحظة فجيعة عشتها ووزر أثقل موازيني. أُقسم أنني لست كأمي، فهي سلمت جسدها طواعية باسم الحب أما أنا فأجبرت على إعطائه باسم الفقر.

عدت للمنزل بعد انتهاء كل شيء.... روحي منهكة وقلبي منكسر، انقلبت حياتي رأسًا على عقب وانفلت لجام قدري مني. ربما أقدارنا

ليست بأيدينا أو ربما الفقراء لا يملكون الحق في اختيار أقدارهم لأنهم ولدوا كعبيد لا حرية لهم في تحديد مصيرهم.

طفلة أنا؛ لست قادرة على مواجهة هذا كله لوحدي ولست مضطرة على تسديد ديون لا تعنيني..

دلفت المنزل وتجنبت النظر في عيني والدتي.. كنت محملة بأكل، رائحته تفوح من شارعين. سارعت أمل في أخذ الأكياس مني ورصت الأكل فوق الطاولة وعيناها ترقص فرحًا..

قفز أبي من مكانه وملأ فمه بشراهة شاكرًا إياي على ما أحضرت دون سؤاله عن أصل الأكل ومن أين أتيت بنقوده.

كانت أمي تأكل بغصة كأنها أحست بشيء فالأمهات يشعرن بأوجاع أبنائهن؛ لكن ما فائدة الشعور دون الفعل؟

دخلت غرفتي وخبأت الأموال في مكان بعيد عن والدي كي لا يسرقه مني كما كان يفعل مع أمي ومعي أيضًا عندما يجد عندي فقط دراهم بخسة كان يسلبها مني كما سلب مني حياتي.

حاولت النوم لأن عبد الله ينتظرني صباحًا للفطار معًا وأخذي لشراء كل ما يلزمني من ملابس ومكياج وما تهواه نفسي.

لم أنم جيدا بسبب الألم الذي طالني من قضيبه.

استيقظت صباحا وأنفاسي تتخبط وسط أضلعي، حلم مزعج راودني.. " أقف في منتصف الطريق؛ كل شيء مظلم ومخيف.. أحاول الرؤية لكن لا شيء واضح.. أصوات غريبة آتية من كل مكان، أركض وأركض ولا أصل لمخرج كأنني وسط نفق لا نهاية له.. ظهر نور خافت بعيدًا عني حاولت الإمساك به لكنه اختفى..

تهت.. أخذت ألف حول نفسي وتلك الأصوات يعلو صداها في مسمعي وضعت يدي أغلق بهما أذني كي لا أسمع شيئًا، صرخت عاليا: النجدة أنقذوني.. فليساعدني أحد... فجأة أحسست بجسم دافئ يضمني بقوة: أمي هذه أنت؛ أخرجيني من هنا لقد ضللت السبيل ولا أدري كيف أتيت إلى لا هنا.. إنني أخاف الظلام أنت تعلمين هذا فأنيري لي الطريق لو سمحت.. لا تتركيني وحدي أتوسل إليك.

وقعت أرضا بقسوة؛ لقد تخلت عني واختفت.. ناديت عليها كثيرًا كي تعود لكنها لم تأتِ.. خذلتني ككل مرة...."

استيقظت وقلبي مخنوق، جبل من الهم يتوسط صدري يمنعني من أخذ نفسي.. تناسيت الحلم لكن طيفه أفسد مزاجي، استحممت لأعيد نشاطي.. جهزت نفسي وذهبت للقاء عبد الله. ذلك الرجل الذي لا أدري لما وافقت على طلبه وسعيت إلى خراب حياتي أكثر مما هي عليه. قرار لم أفكر فيه كما ينبغي.. تجاهلت عقلي وأمسكت ظروفي بمعصمي وأرضختني للقبول.. مر أمامي كل شيء كان السبب في كسري.. محطاتي الخاوية من الفرج، هزائمي أمام نفسي، وأهلي الذين استقر بي الحال رفقة زوج مستعار بسببهم.

وئدت كل الاختيارات أمامي وزعمت على حبك رقعي بنقود تعيد لي أمي التي أراها تضيع مني كل يوم. حتى وإن كان أهلنا عصاة لنا فنحن سنظل أوفياء لهم.

اتفقت مع عبد الله مسبقا على أنني لن أقطن معه في شقته بسبب والدتي المريضة وأختي الصغيرة، مكتفية بالبقاء معه كل يوم إلى أن ينقضي اليوم وأعود إلى وكري مع عائلتي. لم يعارض وتفهم الوضع؛ لكن بالمقابل انتقص من المبلغ بما أنني لن أشاركه الليل والنهار. لم يضايقني الأمر بما أنني ضمنت مصاريف علاج أمي.

بين أحضان عبد الله سألني بخجل:

- ما الذي رمى بك لاختيار هذا الطريق يا وردة؟ فأنت لا يليق بكِ هكذا نصيب.

هاضت مشاعري وتمزقت نياط فؤادي بالألم بسؤاله والدموع كانت الناطق بمعاناتي

بشفقة ضمني:

- لا تبكي فأنا لم أقصد أن أجرحك بكلامي أو أقلل منك أعدك أنني سأعوضك عن كل ما فاتك وأبدد أوجاس الحزن بداخلك وأعتق رقبتك من أغلال الفقر فأنا رأيت فيك البرزخ الذي سأعيش فيه خالدًا مطمئنًا. لا تجزعي من شيء ما دمتُ القرين لك.

تواريت بين ذراعيه وأفرجت عن ابتسامتي؛ أكملنا اليوم والمرار يفسد طعم لذتي.

في كل ليلة كنت أعود إلى المنزل أطمئن على أمي وأصغي لصغيرتي أمل وهي تحكي لي تفاصيل يومها وكيف تنتبه لوالدتي وتساعدها في المطبخ... كنت أترك مصروفًا يوميًّا بوفرة كي لا

يحتاجون لشيء في غيابي إضافة إلى اتصالاتي الكثيرة بهم ليهدأ بالي عليهم.

أما أبي فكان يعد المنزل فندقًا يأتي للمبيت فقط. أدخل غرفتي بعدما أحرص على تناول أمي لدوائها وخلودها للنوم هي وأمل، أقف أمام مرآتي أتجرد من ثيابي وأمعن النظر إلى جسمي.. جسد تنخره سوسة الجنابة فهل يا ترى سيسامحني لأنني وسخته؟

هل سيشهد عليّ يوم القيامة ويأخذ حقه مني؟

لا أستطيع الاستمرار....

أرتدي ملابسي بسرعة وأحاول النوم، لكن روحي تظل عارية ترتجف بردا تبحث عن عباءة التقوى؛ فالقبور موحشة من دون حسنات تضيء عتمتها.

"مكناس: عبق التراث.. المدينة الدافئة والعاصمة الإسماعيلية.. المدينة التي شهدت على انتصارات يخلدها التاريخ إلى الأبد... الأزقة الضيقة التي تشم فيها رائحة الأمان، والأسوار التي ظلت ثابتة في وجه الزمان لقرون معلنة صمودها الأزلي.. أماكن نقشت بمآثر تذهب العقل وساحة "الهديم" التي زينها "باب منصور" بروعة تصميمه المنفرد. عبد الله مولع بالمدن العتيقة كأنها تهديه السلام الذي يفتقده.. فالحروب التي تثير زوابع من الهزائم بأرواحنا لا نخرج منها سالمين.

يصمت أكثر مما يتكلم.. كان من الصعب عليّ فك رباط لسانه ليخرج ما يحمله قلبه من تعب.. كتوم ويقف في المنتصف. أحيانا يضعني أمامه ويتلو عليّ مئات المواعظ ويحذرني من آفات الدهر

وتقلباته.. يعترف بذنوبه ويحذرني من إدمان الكبائر فلا مفازة بعدها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أستغرب من أحاديثه، تناقض بين تعابيره وعتاب يجلد به نفسه.. فحساب المرء لنفسه بنفسه أقسى أنواع العذاب.. تخبط بين إثم وأجر وصوت ينتفض بداخلك يأمرك بأن تختار صراطًا تمشي عليه إما مستقيما أو ضالا لكن لا تكن ما بين البينين... ملاكك يحفزك على التوبة كلما وقعت في معصية، وشيطانك يوهمك بأن ربك لا يقبل العبد الذي أذنب مئات المرات جاعلًا إياك المنافق المتلاعب بدين الله عاصما فؤادك من رؤية نفسك ذلك الأواب العائد إلى الله بيقين المغفرة فتعيش في سخط.

أطلق سراحي مع عبد الله فمعه زرت ما لم تره عيني، وأكلت ما لم تذقه شفتاي قط، وارتديت ما لم يخطر على بالي يوما. عندما أكون معه أتناسى مآسي وأضع عائلتي في حقيبة أرميها في نهر اللا مبالاة ليعيدها إليّ اليم بعودتي للمنزل.

ثلاثة أشهر مرت كلمح البصر فالأيام الجميلة تودعنا سريعا أما تلك العسيرة فتحب إطالة البقاء. قبل أن يسافر عبد الله بخمسة أيام دعاني للغداء في مطعم بعيد عن المدينة عبارة عن رياض فخم وأصيل يحوي على طراز تقليدي وهندسة معمارية عالية الإبداع كأنه تحفة فنية صنعت لتدهش الناظرين.. كان بالرياض جنة تسر العيون وموسيقى تريح السمع تجعلك تسافر معها للزمن الجميل.

طاجين باللحم والفواكه الجافة مصحوبًا بالشاي المعطر بالزعفران وعبد الله يعشق الأكل المغربي جدًّا.

أكملنا غدائنا واحتسينا القهوة في الحديقة الخلفية للمطعم التي زينت بأجمل الورود، كنت أعيش لحظات دافئة معه حقيقة.

أخرجني نداؤه عليّ من شرودي:

- نعم يا عبد الله أنا معك.

بضحكة رأيت فيها الكثير من الحب قال:

- لم تكوني يوما معي يا وردة؛ طوال هذه المدة لم أستطع اللحاق بقطارك أبدا... دائمًا كنت مسافرة بعقلك لمكان لم أعرفه.... لطالما لازمك التفكير الطويل فكم مرة ناديت عليك ولم تلبي النداء إلا بعد إثارة انتباهك بشيء ما.

- لقد خيل لك فقط فأنا كنت حاضرة معك قلبا وقالبا وتشاركت معك أشياء لن ولم تتكرر.

اعتدل في جلسته وأمسك بيدي اليمنى وربت عليها مردفا:

- "اسمعيني يا وردة، يا من لم تسقني من رحيقك ولو قطرة ههههههههه... من حوالي ست سنوات زرت المغرب لأول مرة رفقة أصدقاء لي على أساس أنني سأرفه عن نفسي وأرى بلدًا آخر وأتعرف على ثقافة مختلفة وأغير نمط حياتي الممل وأعود للديار بنفس جديد أكمل به المسير، لكنني تفاجأت عندما اقترحوا علي فكرة زواج المتعة بمبدأ أنه وسيلة لتفريغ الضغط وزوال الهم وإزاحة الغمة التي نعيشها في بيوتنا مع زوجاتنا مقابل مبلغ من المال لن يضرني في شيء بما أنني شخص رزقه الله من أوسع أبوابه. وافقت وجربت فأدمنت الموضوع، فصرت كل سنة آت إلى المغرب بمفردي بعدما أتعرف على فتاة تمارس هذا النوع من الأعمال وأرتب معها كل شيء كما فعلت معك. نامت في أحضاني

الكثير من النساء ورأيت دموع الكثير منهن كذلك، لكنني أقسم برب الكعبة أنني لم أرَ أنقى من روحك قط.. نحن البشر تلدغنا الحياة بسم الشر ليجري في عروقنا مجرى الدم فنهتك حرمة الخير فينا بأبشع المحرمات؛ لكنك أنت كنت حالة نادرة لم يعرف لها الشر طريقًا، فالله حصنك بدرع العفة الذي لم يحبب إليك هذه الفتن حتى وإن كنت ارتكبت جرما في حقه سبحانه فهو كتب لك من أمرك رشدًا.

في كل مرة نتشارك فيها الفراش كنت أشعر باحتضارك بين أذرعي.. كنت أشم رائحة أنفاسك المحترقة وجسدك البارد الخالي من الحياة... كنت أنتبه لدموعك القاطنة بين جفونك وتسدلين عليها الستار لتذريها بعيدا عني لأسمعها تتساقط منك في الحمام الذي كنت تتأخرين فيه بالساعات كأنك تحاولين إزالة خطيئتك بالماء كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.. كنت خاما في سريري لا تفقهين في الجنس إلا القليل، أدركت هذا فلم أطلب منك وضعيات معينة كنت واثقًا أنك لن تستطيعي تجربتها لما فيكِ من حياء؛ رغم أن فتيات هذا المجال لا حياء في عرفهن لإرضاء زبائنهن.

قاطعته بقهرة وبصوت حاد:

- لكنني لم أعد ذلك الثوب الأبيض فلقد لطخه القدر بأوساخه أفهمت؟

أطبق يده على فمي:

- اسكتي فأنت ليس لك ذنب في هذا. أدرك جيدا أن الحاجة انتهزت ضعفك لذلك أتيتك بحل ينهي صراعك ويحرق أوراق الألم

الذي كتبت فيه سطورك الحزينة. بعد أيام سأسافر وستعودين لبيتك ولن تضطري لبيع جسدك لأي شخص مرة أخرى عاهدت الله قبل نفسي أن أنتشلك من هذا الوحل لذا سأعطيكِ مبلغًا لتفتحي به مشروعًا صغيرًا يساعدك على تخطي هذه الحياة. ومتأكد أنك ستحيين بالطريقة الأفضل لك فمغريات هذا الميدان لا تسمن.

نظرت إليه باستغراب قائلة:

- أحقا ما تقول؟ فأنا لو قلت ألف كلمة شكر فأنا لن أوفيك حقك وما فعلته لأجلي أدعو الله أن يجعله في ميزان حسناتك.. هل سنلتقي مرة أخرى؟

بابتسامة:

- فقط ادعي لي بالخير يا وردة وأي شيء ستحتاجين إليه سيكون عندك في أي وقت.. ربما سنلتقي يوما ما، ربما.. سأعود لعائلتي فلقد اشتقت لأولادي وعملي أيضا... اهتمي جيدا بنفسك يا وردة ولا تدعي الماضي يسحبك إليه.. تجردي منه وانطلقي.

بعد مغادرة عبد الله أول ما فكرت فيه هو استراحة، فهذا ما كنت أحتاج إليه بعد معركة طويلة.. حرب دامية مع نفسي استنفدت قواي وشلت تفكيري..

أيام سرقت مني الأغلى وتركتني على مضاضة أنتحب على ما ارتكبت.

استراحة أرتقي فيها جروحي مع الاحتفاظ بندوبها كذكرى؛ فالكلوم لا ترحل دون ترك أثر لها.

الفصل السابع

" لو استطاع الإنسان تطهير عقله من المعاصي ما كان أذنب، ولو استطاع إسكات أوجاع روحه ما كان أذى نفسه، لو استطاع اقتلاع ذكرياته لكان مضى سعيدا غير عابئ بماض لا يترك سوى الندوب"

يارا سعيد

قبل أخذ أمي إلى طبيب نفساني يعالج حالتها قررت السفر بها وبأمل لمدينة توقظ فيهما الحياة وتطرد الكآبة بعيدًا، فالأماكن التي تكون سببا في أوجاعنا هجرانها حق مشروع لسلامتنا.

فكرت في مدن كثيرة تهدينا السكينة فأرسى اختياري على مدينة "أصيلة" أو "زيليس" كما يسميها البعض. المدينة الأنيقة كأنها اليونان على أراضٍ مغربية، هادئة ومغرية تعيد للأفئدة أنفاسها، وتشعل فتيل الأمل في زوارها فهي تشبه كثيرًا جزر اليونان.. معروفة هي بجدرانها الملطخة برسومات محنكة عليها بصمة الإبداع وبيوتها التي وحدت باللونين الأبيض والأزرق كأنها تدعونا لمصالحة ذواتنا....

جهزت كل شيء، حجزت لنا بمنتجع يخرجنا من غمد التعاسة، ورسمت خارطة العطلة التي سنقضيها هناك هاربين من أبي. فرحة تسع مساحة السماء استولت على أمل فهي ولأول مرة ستسافر، ستتمكن من رؤية الوجه الآخر للحياة غير الذي تقبع فيه، ستحصل على فرصة لاصطياد ذكريات تحتفظ بها تكون بلسمًا لجراحها فانكسارات الطفولة ملعونة....

أما أمي فلم أفسر ملامحها... لم أتمكن من قراءة الطالع في عينيها لكنها عموما لم تمانع الرحلة.

حاولت توفير كل شيء لهما.. تعويضهما عن الحرمان الذي طالنا من أبي.. تبديد القهر في أرواحهما واغتسالهما بماء الراحة ولو لفترة مؤقتة المهم أن ينالا قسطا من الفرحة.

كنا في شهر يوليوز.. الصيف والشمس الملتهبة.. الأجواء المليئة بالحياة والتجديد. فور وصولنا رأيت أمي تنزع النقاب كأنها تعلن حريتها من سجن الأحكام المجحفة التي طالتها من ألسن الناس بين عتاب وشماتة، فما دام الناس لم يرتشفوا من نفس الآلام التي ذقت وبال الأسى منها فهي لن تشفع لك ردة الفعل.

أخذت نفسًا عميقًا كأنها أول مرة تستنشق الهواء ثم ارتسمت ابتسامة على محياها لم أرها منذ مدة طويلة حتى ظننت أن المرض دفنها.

استرحنا يوم وصولنا إلى المنتجع بالغرفة الفخمة التي جهزت لنا والإطلالة الساحرة المرافقة لها والحديقة التي تجملت بها..

أمل تقفز فوق السرير منذ دلوفنا وتهلل فرحا، وأمي خرجت للجلوس في الفناء فاقتفيت أثرها وجلست بجوارها:

- هل أعجبكِ المكان يا أمي؟

- إنه جميل يا ابنتي والأروع أنه لا تفوح منه ذكريات الماضي.

- لقد أتيت بكما إلى هنا لننسى ما مضى يكفينا حزنا فأرواحنا تآكلت به.

- النسيان ليس بالأمر الهين يا وردة فما دمنا لم نقتلع شجرة الزقوم من جذورها التي أسقانا منها والدك الويل فنحن لن ننعى بالخلاص.

- إذًا فلنعش اللحظة ونترك كل شيء لوقته... فنحن نحمد الله أننا ابتعدنا عن زوجك الذي فرح أكثر منا بسفرنا كأننا أسفار هَمّ على قلبه.

- حسنا لنستمتع بحاضرنا فأنا لن أفسد عليكما المتعة.

كخيمة ونحن أوتادها؛ هكذا نمنا نحن الثلاثة.. تتوسطنا أمي ونتوسط حضنها. ضممتها باشتياق فلقد طال بي النوى منذ آخر مرة دلفت بين ذراعيها. غرقنا في سباتنا ليلتها ومن دون تفكير يسرق من جفوننا النوم.

فطور ملكي جيء به إلى غاية غرفتنا، لم أرد أن أستخسر شيئا عليهما.. أحببت أن أشعرهما بقيمتهما وبأنهما يستحقان الهناء. قررنا التوجه إلى البحر وقضاء اليوم هناك..

جلست فوق الكرسي أنظر إلى أمل التي تراقص الأمواج فرحا.. أول مرة سترى البحر كانت كالأعمى الذي عاد له بصره بعد سنين من الظلام... أمي تقف بالقرب منها تراقبها خوفا عليها، تداعب الرمال برجليها وتحيل ببصرها نحوي... تحمل كلامًا كثيرًا تود قوله لي ولا أدري متى ستنطق أحبالها بما يخبئه جوفها فكتماني أنا أيضًا يخنقني....

كنت أضع نظارتي الشمسية أهرب من عينيها فلا قدرة لي على مواجهتها... أستحي أمامها وأنا أغطي وجهي بقناع الطهارة الذي أرتديه كي لا تكرهني وتلازمها صورتي الملائكية... لكن العيون تترجم المشاعر وتكشف المستور.

بعد يوم متعب على البحر عدنا إلى المنتجع وقد كنت حجزت لنا في صالة التدليك لنخفف عنا تعب أجسادنا.. استمتعت أمي به كثيرًا فلقد أعاد لها نشاطها بعد خمول أعجزها...

دعوت أمل أن تطفئ التلفاز لنخلد للنوم من أجل الاستيقاظ باكرا لرؤية المدينة غدًا فصدمتني بكلامها:

- أختي وردة بما أنك أصبحت غنية فجأة لماذا لا تشتري لنا منزلًا هنا فلقد أعجبني المكان كثيرا

افتعلت ضحكة غبية:

- ألم تتعبك السباحة هيا نامي سنذهب غدا لأماكن رائعة.

لم تقل أمي شيئا كأنها لم تسمع شيئا.. انتثر الرعب في أرجاء جسمي فأنا كنت على موعد مع جلسة الاعتراف لكن لست جاهزة لها الآن أبدًا... شكرت الله لأن أمي غضت سمعها بإرادتها

في الصباح أخذنا نجول زوايا المدينة ونتصفح أزقتها.. بين بزاراتها ومتاحفها ومآثرها العريقة.. جبنا الأرجاء كلها محملين باقتناء كل ما تعجب به أعيننا... أترك لهما اختيار المطاعم وأماكن السهر فأينما كانت سعادتهما تكون راحتي. كانت فرحتي هجينة ممزوجة بخوف مما سيأتي وبأطياف ذنوبي التي تلاحقني... أرى الناس منفرجة الأسارير متبرجة بزينة السعادة وأسأل نفسي هل هم أعف مني يا ترى؟ هل يزاولون حياتهم بطقوس الحب عكسي أنا؟ وسريعا ما أنفض غبار الاستفهامات من عقلي وأعود لنفسي

هل سأستطيع البدء من جديد حقًّا وقطع صلتي بما خلفته ورائي من دمار كاد أن يهلكني؟

انشرحت لنا الأيام الباقية برخاء أزاح عنا عبء ما مضى وجعلت من أمي تكابد لتتغلب على ظلامها كي ترى نورها مرة أخرى، فمن دون إضاءة مصابيحنا بالأمل فنحن لن نستطيع إيجاد الطريق.

انقضى الأسبوع سريعا وهممنا بالرجوع لغارنا... لم نحبذ ترك المكان لكننا على الأقل شحنّا أنفسنا بطاقة تؤهلنا لإكمال النزال.

رائحة المنزل قذرة.. العفن يملأ المكان.. زجاجات الخمر متراصة فوق الطاولة وهو كجثة هامدة ملقى على الأرض رفقة أصدقائه، هكذا كان منظرهم عند دخولنا للمنزل كأنه حانة للمتسولين فبشاعة أشكالهم لا توحي إلا بهذا.

أيقظته والدتي وهي تركله برجله على بطنه:

- انهض يا حسن غبت بضع ليالٍ وحولت البيت لخربة.

وبصوت عال شتمت أصحابه وطردتهم خارجا.

تمتم بكلمات في سره واتجه نحو الحمام دون إعارتنا أي اهتمام فكم هو قبيح أن لا يرى المرء نفسه مخطئا في حق غيره.. كتمت أمي غيظها وطلبت مني مساعدتها في تنظيف المنزل...

مرهق هو الشعور بالعجز على عدم قدرتك على تغيير واقعك ونسف بعضهم من حياتك لتصبح خالية ممن يجرك إلى القعر معه...

ظل أبي نائما طوال اليوم، انتهينا نحن من أشغالنا وحضرنا أكلنا وجلسنا نشاهد صورنا وذكرياتنا المفرحة هذه المرة التي أنجبناها من حياة عقيمة.

بعد برهة أتت أمي ببعض الأوراق وأوصدت باب الغرفة علينا وقالت:

- "قبل أن يتوفى والدي ببضعة أسابيع أتاني وملكية المنزل والمحل باسمي لأنه يعلم مدى جشع إخوتي وكرههم لي ورغبتهم في تركي من دون شيء لأنهم يعتبرونني لا شيء... فلقد ظن أنه سيصلح ما كسره أو سيعوضني عما ضاع مني.. وبغض النظر عن كل ما قام ويقوم به والدكما لم يطاوعني قلبي على طرده من البيت أو المحل فأنا دائمًا ما أضع الله أمامي معه ولن أنكر أن ضعفي كان يتملكني كثيرًا ومقاومته أمر صعب.. سفرنا كان بمثابة فترة نقاهة لي من أسقام الدهر فلقد أعدت التفكير في العديد من الأمور وأهمها هو جعل هذا المنزل والمحل باسمكما لأضمن لكما حقكما من بعدي.

فوالدكما لا خير فيه والرحمة في قلبه مبتورة ولا حق له في شيء ملكي أبدا.. أما إخوتي فاعترافهم بكما لن يحدث فالواقع أنهم مسحونا من قائمة العائلة... أنا لم أقدم لكما شيئا في حياتي يكفر ما جنيته عليكما وهذا أقل شيء يمكن أن أفعله لأحافظ على الأمان لكما. غدا سأوثق الأوراق لكن أريد أن يظل هذا سرًّا بيننا فوالدكما ليس على علم بأن كل هذا باسمي إياك يا أمل أن تفتحي فمك

بحرف يا عزيزتي فأنا أدرك أنه أحيانًا يشتريكِ بقطعة شوكولاتة لتفشي له أخبارنا.

أمل: لا يا أمي فأنا لم أعد طفلة يمكنك الاعتماد علي كما تعتمدين على وردة.

الأم: أنتما ربيع حياتي لولاكما لكانت أيامي مقفرة.. لقد صمدتما كثيرًا معي، وأدركت متأخرة أن خوفي أنهاني ومنعني من تغيير قدري للأحسن.. فلم أكن لأخسر شيئا لو أنني تمردت وطالبت بحياتي، كنت سأستطيع إصلاح الثقب الذي أصاب قاربي والإبحار بعيدًا بكما حتى نصل لشاطئ النجاة.. كنت قادرة على مواجهة العاصفة لكنني اخترت الاختباء؛ الاختباء بين أطلال الماضي واستسلامي لدور الضحية.

*****

الفصل الثامن

"من يعيش في حفرة الخبائث فهو لا يرى نور النجاة"

توقف الرجاء في أبي، وإدمانه ساقه إلى الهاوية... هلاك يتبعه هلاك والنتيجة واضحة. يتسامر الناس علينا كلما برحنا خارج المنزل بسبب مخلفاته الجالبة للعار... يقضي كل الوقت يتسكع رفقة المدمنين أشكاله ومنهم مصطفى صاحب البقالة، يسهرون ليلا بين عتبات الأزقة وعقولهم أذهبها الخمر. أما المحل فلقد وارى عليه الثرى ولم يعد يقصده إلا قليلا، ينفق على نفسه من مال المقامرة.. متشبث هو بالسير في طريق ضيق لا نجاة فيه، فأحيانا كثيرة نحن من نختار الوقوف على عتبات الضياع فلنرضى بالجزاء إذًا.

كانت ليلة ممطرة حد الخوف... برق ورعد يرعب القلوب.. نجتمع أنا وأمل مع أمي نتبادل أطراف الحديث في أي شيء يأخذنا بعيدا عن واقعنا. فصنع الخيال يقينا شر الحقيقة.

وصلت عقارب الساعة إلى العاشرة ليلا، يطرق أبي الباب بقوة، فزع يصيب أمل فتختبئ وراء أمي، فتحتُ فإذا بأبي ومصطفى ورجلان آخران معه لم أرهما من قبل، يحملون كيسًا أسود به قنينات الكحول وأجسادهم تترنح من الثمالة.

منعته وأمي من إبقاء الرجال في قعر المنزل، تصديت له كي لا يدنس متاعنا ويتقي ربه فينا، تمادى وتحدانا، صعد هو ومن معه آمرا إيانا بعدم الاقتراب من الطابق الثاني.

لم ينل مني الهدوء فلم أعد قادرة على تحمل هذا الوضع أكثر، فأن يكون رجلا سيئا ومنعدم الأخلاق فلا جناح عليه منا؛ لكن أن يهدم سقف الوقار بيننا وبين العالمين فهذا كفر في حقنا يفرض نسف وجوده من حياتنا.

توالى عقوقه لنا وهدم جدار الاحترام بيننا بعدما أضحى السكارى يرون عورة منزلنا كل ليلة.

يقضون الليل بين سكر وغناء وأحيانا يسود صمت رهيب كأنهم غير موجودين. نقفل علينا الغرفة بالمفتاح لنتقي شرهم وأولهم والدنا فالخوف من القريب أولى.

أمل تعود لصمتها يومًا بعد يوم وتكتفي بالنظر، أما أمي فتنتظر هطول المطر لتغتسل من ماضيها لا تدرك أن ماضينا لا يغادرنا، لا يتجرد منا، يظل يلاحقنا كلما حاولنا الهروب منه.

بحثت لوالدتي عن طبيب ممتاز لينتشلها من أحضان المرض لكنها أبت الذهاب... كانت تريد أن تجد نفسها بنفسها... ترغب في إخراج السم بيديها من جسدها كأنها تثبت لذاتها أنها قوية، قادرة على التحمل، والكسر لن يطولها مرة أخرى. لكنها تخسر كالعادة سرعان ما تخر قواها وتسقط أرضا لأنها هشة من الداخل. قالت لي ذات مرة: " إنني أجر أشلائي ورائي... يحيطني الحطام من كل جانب.. ركام من الحزن يتوسد فؤادي.. ألملم ما تبقى مني لكنني غير مكتملة.. نواقص تعتريني.. الخوف والهزيمة يملآن رئتي فلا أستطيع تنفس الشجاعة.. "

لا فائدة من المحاولة ما دام المرء يعلم أنه لن يستطيع التحمل.

نهضت باكرا، توجهت للبنك، سحبت نقودا تكفيني لأيام فنصفها ذهب ولم أنتج منه شيئا يغنيني.. ربما لأنها حرام فلا تثمر. اغتنمت فرصة خروجي فاشتريت لوالدتي ثوبا تصنع منه جلبابا جديدا وأخذت بعض أوراق الرسم لأمل رغم أنني أصبحت أراها ترسم أشكالا غريبة لا توحي إلا بالخوف، وجوه تصرخ وخطوط سوداء كأنها متاهة... لم أدرك مغزاها لكنني متأكدة أنها تصف روحها. أشعر فعلا بالعجز تجاه هذه الفتاة لا أعلم كيف سأنقذها.

تجلس لوحدها في الغرفة فسرت نحوها:

- انظري إلى هذا الثوب يا أمي سيليق بك كثيرا، فأنت أجمل أم رأيتها في حياتي.

قبلت جبيني قائلة:

- وأنت أحن فتاة جيئت إلى هذه الحياة... ثوب جميل يزين أجسادنا ويستر عوراتنا لكن هل يا ترى هو قادر على أن يلثم آثامنا؟

تلعثمت أمامها:

- ماذا تقصدين يا أمي لم أفهم؟

- للإنسان دائمًا أسرار يخبئها عن الجميع وأحيانا يخبئها حتى عن نفسه لأنه يكون غير راضٍ عنها ولا راغب حتى بالاعتراف بها أمام نفسه؛ لكن تشأ الأعين أن تفضح النفس عن طريق دموع خفية أو نظرات تحمل انكسارا يرويه بريقها.. وأنا كأم قرأت عيونك من زمان وحكت لي كل شيء وانتظرت كثيرًا أن تأتي وترمي بأحمالك فوقي لكنك هربت مني.

بثبات مصطنع ومكشوف قلت:

- أمي أنا حقًّا لم أفك شفرة كلامك ماذا يجري؟

- لو أن لي كرة إلى الماضي لما سمحت للبعض بتقرير مصيري كي لا أصدم بواقع مر يدمر حياة ابنتي، مجرد الفكرة تؤدي بي إلى الجنون.. تشعرني بنقصي وتوقظ فيّ ما أحارب لقتله... كنت أفقه ما أنت ذاهبة لفعله وأصمت لا أحرك ساكنًا لأنني مرغمة على الانحناء ما دمت لن أحرر رقبتك من الذل.. اجتهدت في أن أتنبأ لك بمستقبل يغير حياتك للأفضل لكنني رسبت.. حاولت الإمساك بكما لكن مرضي أضاعني عنكما.. تهت فتركتما في مرحلة لا يجوز فيها الخذلان... كنت أنانية عندما اصطفيت ظلام المرض بدلا من تمزيق الستار والمواجهة.. لقد خنت الأمومة.

جثيت على ركبتي:

- ما فعلته لم يكن يملك ختم الاختيار؛ بل كان عقوبة فرضها عليّ الزمان ولا غرامة أملكها لشراء حريتي... لا أدافع عن نفسي لكن انهيارك أمامي وانسحاب أبي منا وتبعثر أمل القاسي، حمل بي لافتعال آثامي.. كل ما أردت هو الحفاظ عليكما مهما كلفني الثمن.. المهم هو بقاؤكما معي.

تنهدت أمي بألم:

- لا جدوى من النواح على البقايا ما دامت أرواحنا تهشمت من الأثر.. فالذنب نحمله أنا ووالدك على أعقابنا فلولا جحوده معنا لما تاهت بنا السبل.

ظللت أيامًا لا أجيد كيفية التحدث مع أمي استحياء منها، مواجهتها لي لم تكن قاسية كما ظننت.. فهي أكثر شخص تدرك معنى الهزيمة أمام الظروف وظروفي بناها والدي لتهدم فوق رأسي.

ظننت أنها ستحكي لي عن ماضيها وغلطاتها لكنها لا تزال تصر على الصمت ربما خائفة من تقلبنا ضدها كما تقلب الدهر عليها فأباد حياتها.

لقد استمر الحال في التفاقم وأبي استهتر بكل القيم أمام نزواته.. مطاردات من الشائعات تلاحقه وتوسخ سمعته المتسخة أصلا. طردناه أكثر من مرة من البيت هو وعشيرته من الرجال لكن بلا جدوى. تعودنا على أصوات الموسيقى فأصبحنا ننام على صداها، تحايلت على أمي كي نبيع المنزل والمحل ونرحل لمدينة أخرى لا يعرف لنا طريقا بعدها لكنها ترفض؛ حتى أهلكني ترددها.

بعد ظهر يوم الجمعة أتى أحدهم يسأل عن أبي خرجت للقائه ونظرات الشر ترتسم في عيونه:

- ماذا تريد من أبي؟

بوقاحة في كلامه سألني:

- هل أنت ابنته البكر؟

- وما شأنك أنت قل ما تريد أو غادر.

- حسنًا حسنًا أيتها الجميلة لا داعي للتعصب علي فملامحك لم تخلق لتتوتر، قولي لوالدك أننا سنسهر عنده غدا، فبيتكم دافئ ويعجبني.. إلى اللقاء يا حلوة.

طبع قبلة على الهواء مشيرا إليّ وذهب.. انفجرت غاضبة في وجه أبي الذي أيقظته من سباته بدلو من الماء وهددته بعدم اقتراب أصحابه من بيتنا مجددا وإلا اتصلت بالشرطة ليأخدوهم للسجن جميعا.

بزق في وجهي:

- أتتحدينني يا فتاة أم ماذا؟ هل تظنين نفسك شيئًا لتهدديني كهذا فوالله لو فعلتِ ما قلتِ لقتلتك قبل أن تصل الشرطة إلينا فاغربي عني الآن هيا.

نحن نتمادى في إعطاء صكوك الغفران كثيرًا لأناس لا يأتي منهم سوى الأذى فهم عبارة عن ورم خبيث استئصاله مفروض.

أتى الصباح والنوم لم يعرف لي طريقًا.. لقد كرهت هذا الحال وضقت منه ذرعا... تجولت داخل عقلي طوال الليل أبحث عن حل ينهي هذا الكبد الذي أخذ منا الكثير؛ لكنني لم أجده. لكنني أعلنت مع نفسي استقالتي من دوري كابنة له فلا يشرفني وجود أب كهذا في حياتي..

أمل تعاني في صمت، يزداد نفورها منا يوما بعد يوم، تذهب بأفكارها بعيدا عنا.... متشردة هي بيننا...

على طاولة الفطار اقترحتُ على أمي أن نقضي النهار خارج المنزل ونستمتع بالذهاب إلى أي مكان يريدانه، لم تحبذ الفكرة وأصرت على البقاء، لم تفهم أنني أريد الهروب من أبي.

لم أرَ أبي في البيت طوال اليوم تمنيت لو أنه لا يعود أبدًا، لكن معظم أمنياتي لا تتحقق؛ تصدها السماء فتسقط مكسورة...

على أذان المغرب يدلف الرجل ومعه أكل كثير جاهز وفواكه صعد بها لفوق ونظم المكان كأنه سيستقبل الوزراء عنده وهم أرذل الناس وهو معهم...

كالعادة ندلف غرفتنا نوصد بابها ونحشر أنفسنا في أكناف بعض غير مهتمين بما يجري فوق... ضحك ولهو يملأ المكان،

والموسيقى يرتفع صوتها تارة وينخفض تارة أخرى.. كانوا ثلاثة أشخاص ورابعهم أبي...

في الساعة الثانية ليلًا بدأنا نسمع صوت خبط وشتائم والزجاجات تنكسر... ارتعبنا حد الموت فالكل سكارى والوضع لا يبشر بالخير. لحظات من الهدوء أتت فجأة فحاولت فيها معرفة ما يجري..

خرجت من الغرفة وأقفلتها عليهما.. تسللت حافية القدمين وصعدت السلالم... وصلت إلى الغرفة فانحنيت كي لا يروني... استرقت النظر من النافدة فباب الغرفة كان مقفلًا عليهم... جحظت عيناي وارتجف جسمي هلعًا عندما شاهدت المنظر... وضعت يدي على فمي كي أكتم أنفاسي وعدت أدراجي والصدمة ترتسم على وجهي..

جلست بجانب أمي والرعب يسكنني.. تسألني ماذا وجدت لكن لساني رفض النطق بالكلام.. تمسك أمل بيدي وهي ترتجف كأنها تحاول تهدئتي... أحضرت لي والدتي الماء، شربت فعادت لي أنفاسي... حملت هاتفي واتصلت بالشرطة.

يداه مقيدتان بالأصفاد هو واثنان معه، يرتديان فقط ملابسهم الداخلية وجثة مصطفى ملقاة على الأرض عارية.... الشرطة تفتش المنزل برمته وأمل معتكفة في حضن أمي... جماهير من الجيران يحتشدون أمام المنزل والطامة كبرى هذه المرة... أخذوا البصمات وشمعوا الغرفة وأمرونا بعدم لمس أي شيء.

أخذوا أقوالنا فاعترفت لهم بكل تفاصيل أبي واعوجاج أمر مصطفى وبأننا لا نعرف الرجال الآخرين.

كان وجه أبي مخزيًا، نظراته جاحدة وغضب الرب نازل عليه.. ملوث بكل الكبائر ولا حياء فيه.. متصنع للبراءة موشوم بالكهن.... كل الخبائث نكحها حتى وافته منية الطهارة.

لم يعترف أي منهم بمن قتل مصطفى حينها، أخذت الشرطة السكين للتعرف على بصمات من فيهم.. وحملتهم معها إلى المركز لينظروا في قضيتهم التي لا مخرج لهم منها...

قتل بالسلاح الأبيض وسط سُكر وحالة مشبوهة، فكلهم كانوا متجردين من ثيابهم إلا ما يستر عورتهم ونظراتهم فيها ريبة غريبة... يحاول كل منهم التملص وإلصاق التهمة في الآخر.

لم ننم ليلتها، أمل لم تجف دموعها وأمي تولول على ما حصل، أما أنا فكل ما كان يشغلني هو أنني تأكدت أن أبي كان يمارس من الشذوذ ما يمنع غيث الله أن يسقينا. كيف؟ ولماذا؟ وما المتعة في هذا؟

تقبلت صور أبي السيئة كلها وألفت له أعذارا تواسي خيبتي به؛ لكنني لم يخطر ببالي أن يجره الشيطان ليمتثل أمام عرش اللعنة ويعلن استكباره بفجر يشوه عرضنا.

كل الأفواه أخذت تتحدث عنا ولا أحد يسلم من ألسنة الناس الحارقة.

أتت الشرطة بعد خمسة أيام ومكان الجريمة لم يقربه أحد، خمسة أيام مرت كألف سنة فيها رعب ودناسة، لم نطق الجلوس في البيت كأن الجمر يتوقد تحتنا... كان شكله مقرفًا ومتعفنًا بعض الشيء هو ومن معه، يتصرف معهم أفراد الشرطة باحتقار وذل، صعدوا بهم لفوق لإعادة تمثيل الجريمة. لم يكن هو من قتل

مصطفى؛ كان الرجل الذي أتى للسؤال عنه يومها. دار الشجار بينهم عندما أراد هذا الأخير إمساك مصطفى بالقوة فأبى الممارسة معه، تعاركا وحاول الآخران فك الخصام بالهدنة.. تصنع الصلح وبعد دقائق أتاه من الخلف وأمسك برقبته فلقد كان قوي البنية وشديد الطول فذبحه من الوريد إلى الوريد.

لمحتُ أمل تقف عند سلالم السطح تدون ما يحصل، أسرعت باتجاهها وحضنتها:

- إياك أن تخافي فأبي لم يفعل شيئا وما حدث كان شجارا لا أكثر.

تنصلت مني: إلى متى ستظلين تخبئين الشمس بالغربال عني؟ هل أبدو لك كطفلة أم فتاة لا عقل لها؟ استيقظي يا وردة فأنا ألعب دور الصغيرة كي أهرب مما أراه، كي أصنع لنفسي قوقعة تحميني من شركم جميعا فكفى.. كفى أرجوكم.... أعيش في ظلمة حالكة بسببكم.... السواد يلاحقني، العار ملتصق بي والحياة معكم مقصلة تعدم الطيب وتترك الخبيث ينتشر كورم خبيث يسرطن الأيام فاتركيني وشأني ولا تظاهري بالطهارة أمامي...

صرختْ في وجهي وذهبت... نحن شر لها؛ نعم هي لم تكذب إننا فعلا بئس العائلة.

*****

الفصل التاسع

" الطفولة إرث من الآباء "

نحن لا نستطيع التجاوز... لا نغض أبصارنا عن المضايقات التي نتعرض لها... لا يمكننا النسيان ولا رؤية المكروه على أنه فيه خير لنا إلا بعد وقوعه... لا نملك خاصية مسح ذاكرتنا من الفيروسات التي تسرطن أشياءنا الجميلة... نحن لا نقوى على التجاهل ولا نجيد تمثيل التغافل ما دامت الأفعال تقتلنا.

لكن؛ ما يدمرنا هو اختباؤنا خلف ستار الصمت خائفين من المواجهة فنقع صريعي التآكل النفسي وجلد الذات المميت.

نصبح في متاهة.. نحاول البحث عن الطريق لكن التراكمات تثقل حركتنا، تستنزف طاقتنا وتطفئ شمعة الرغبة في الحياة بأعيننا...

الأيام متعبة.. منهكة.. عارية من الأمان... خالية من الإحساس ومجردة من الاستقرار.. مائلة لا تعرف الوسطية ولا الاعتدال. جبارة في نزع الراحة منا.. بارعة في انقلاب الأمور ضدنا. سادية في عرفها، تستلذ بتعذيبنا.. تنتشي بآلامنا وتستعلي علينا عندما نستجدي رحمتها.

تربى بأحشائنا غياب الأب حتى أضحى شبه طيف يمر سريعا أمامنا ويختفي دون لمح أثره علينا... لا قبلة قبل النوم، ولا سؤال عن حالنا وكيف هي مجريات حياتنا... ولا حتى نصيحة نتخذها كقارب للنجاة من الويل. شذوذ في العلاقة جمع بيننا، كل طرف فينا يرى الآخر من زاويته الخاصة.. الضباب يغطي أفئدتنا، لم

نتعرف على بعض ولم نشارك بعضًا في تأسيس ما يسمى ب " العائلة".

طوابير من المشاعر ظلت تنتظر دورها لنبوح بها، آلاف الابتسامات اغتالتها الدموع لم تتركها تشرق فوق سماء وجوهنا لتعبر عن حبنا، اشتياقنا، ورغبتنا في الاقتراب... البعد العاطفي شرخ قلوبنا، كفن فطرة الحب واعتقلتنا بعيدا عن أرواح بعضنا البعض حتى استقر بنا للعيش في صحراء قاحلة لا مطر حب يسقيها. فبالحب نشفى ونروى ونقوى.. وبالجفاء نذبل.

الكل يحاول طعنك بخنجر الندم بدل طعن نفسه على أساس أنك سبب شقائه.. سبب اندلاع الحرب التي أنهت حياته ... يضعك أمام مرآة منكسرة كل شظاياها ضياع وفشل وخوف من الاعتراف؛ الاعتراف بالنقص.. بالتقصير، بسوء التخطيط، بغباء قرارته، بجهله في وضع أسس قوية لبناء أبناء أسوياء نفسيًا.

فأكثر من نصف أطفال العرب يعانون من أمراض نفسية غير ظاهرة والكارثة أنها تخرج بطريقة بشعة عند الكبر؛ تخرج على هيئة وحش يدمر كل شيء حوله، وفي الآخر يلام الشخص وينعت بالمريض في حين أن لا أحد يسمع الأنين الذي يذبح الروح فتنزف وجعًا من العقد التي شوهت الحياة.

في علاقتنا مع أبي كنا لا نعلم معنى الاشتياق... لا نبالي بالاهتمام ونتعالى على الاحتواء... نمارس البعد بأريحية لأنه الحل الأنسب لنكمل المسير.. كان النفور يدحس كل جميل يمكن أن يتكون في قلوبنا.. نجهض أحلامنا قبل اكتمال نموها كي لا تنفخ فيها روح الأمل فتدفن.

تمنينا كثيرًا لو كان كل شيء عشناه كان أضغاث أحلام.. كابوس سيئ نرتل عليه رقية شرعية فيختفي.. شيطان نلعنه فيندثر.. لكنه كان واقعًا حقيقيًّا؛ مرًّا، كئيبًا، محملًا بالمآسي وندلًا معنا حتى جعل منا أناسًا تعرف كيف تعاشره بوقاحة، بمشاعر صلداء لا تتحرك، بإيمان شبه مفقود ونفوس أمارة بالسوء. تعلمنا أن لا نتحدى القدر نحن نقبل ما يفرضه علينا ونؤدي دورنا بهدوء فوق ركح الزمن.

أمل ترتجف روحها بردًا من الحرمان، شهدت ألف مرة على نظرات القهر التي كانت تستوطن عينيها عندما تلمح أبًا ممسكا بابنته مبتسما في وجهها يرافقها بحب، وهي في الضفة الأخرى تتعرض لأقسى أنواع القصف بصواريخ الإهمال والهجر. ورغم كل هذا عقدنا النكاح مع الرضى، قبلنا بكل شيء قدمه لنا واتخذنا مما حاكه لنا لباسًا لأيامنا القادمة، حتى وإن كان لباسًا فاضحًا أبرز عورتنا. فهو وبدرجة امتياز وضع قيمتنا تحت الأقدام، بفضله لم يعد لنا لا احترام ولا اعتبار كأننا ملعونون؛ منبوذون لا يجوز الاختلاط بنا. هذا الوضع أثر على أمل بطريقة بشعة جدًّا، تنمر وضغط ونظرات احتقار تطاردها. حياتها تشمعت بالعار وبصمة الذل ترافقها. نحن الكبار نتغافل.. نمرر.. نحاول أن نتخطى ونغير

المسير؛ لكن الصغار لا يتمكنون من التجاهل ولا يصطنعون اللامبالاة. هم يقرؤون الوجوه ويحللون ملامحها ويفسرون مغزى الكلام. فقيمة الأبناء وسط المجتمع يصنعها الآباء فهي العرش الذي يعتليه الأطفال بكل فخر؛ وأمل كان عرشها محطمًا.

أما أمي فكانت تمتهن الصبر وتتمتم تعاويذ الفرج دون الأخذ بالأسباب. فالصبر كلمة كبيرة وصعبة فهو يحتاج لقوة التحمل والقوة تتجدد بالإيمان. لكن ماذا إن كان المرء يفقد الإيمان بعد كل كرب ومنعدم الأمل هل سيقوى على اتخاذ الصبر قاربًا للنجاة من المهالك؟ وهل سيرى لطف الله في الابتلاءات؟

والدتي ليست بتلك الإنسانة المتزنة القادرة على القيادة بنظام ملاحة سليم.. هي بطلة بكماء في مسرحية زوجها، تاركة الحبكة له يسير الأحداث كيفما يشاء كأننا دمى يلاعبنا ويستخف بنا.

أنا لا ألحى على أحدهما لكنهما تركا فينا ندوبًا لن تنمحي ولن يشفيها الزمان أبدًا.. بل هي ستظل معتقة في نياط قلوبنا تسكرنا حزنا ليلا كلما افتكرناها.

وبالنسبة لي فأنا لا أقوى على مسامحة أحد فيهما.. فهو قام بتعذيبنا دون شفقة وهي شيطان أخرس حرمتنا من حريتنا منه فلعنة الله عليهما.

قد أبدو للبعض قاسية لكنني لست سوى نتيجة تجربة فاشلة ضيعت آمالي ورمت بي على قارعة الطريق فتركوا كلاب البشر تنهش بدني. تساءلت دوما ما إذا كانت الحياة اختيارات فأجابتني

تصرفات أبي بأنها مقصلة لا تقبل إلا السير مع ما تقدمه لنا وإلا ستقطع رقابنا إذا تمردنا ضدها.

*****

الفصل العاشر

" حتى في الرحيل لا توصد جميع أبواب الماضي "

بأعين جافة من الندم تلقى قرار الحكم كأنه كان يدرك ختامه هذا. فتوقع الأسوأ ينهي مرارة الواقعة. لهذا كان راضيا بحكم السجن لعشر سنين ربما لأنه سيفلت منا وتنتهي قصتنا معنا وينزع لحاف الأب الذي لطخه بجرائمه وأساء إلى قدسيته.

كنت الوحيدة في المحكمة التي تمنيت لو أطلقت زغاريد الفرح وأسررت عن فرحتي السرمدية بالخبر. لم تأتِ أمي معي ولا أمل لأنني أعلم مدى صعوبة الموقف عليهما خصوصا أمل فليس من العدل أن ترى أجواء المحكمة القاسية يكفيها ما رأت حتى الساعة.

عدت للبيت وزففت الخبر لأمي بفخر. كانت شبه فرحة لا أعلم لكنها شعرت بشيء ما لم أستوعب ما هو.

سألتني إلى أي سجن سينقل وكيف تكون مواعيد الزيارات وماذا يفترض أن نعطيه إياه لكنني صرخت في وجهها:

- ليس لي أي فكرة أين سيضعونه وليس له شيء عندنا لنسأل عنه بعد اليوم فهو صفحة سوداء ومزقناها من حياتنا فلا تحاولي أن تساعديه يا أمي أو حتى أن تفكري فيه. فأنت المفروض أن تكوني أسعد الناس بتخلصك منه فهو لم يهدِك سوى الألم فكيف لك أن تسألي عليه أو تهتمي لمصيره فلتستيقظي أرجوكِ.... وبالمناسبة لقد سألت على موضوع الطلاق وللأسف لن تستطيعي تطليقه إلا بعد سنة من الآن لكنني سأبدأ في الإجراءات واتفقت مع المحامي ليباشر في إنجاز ملف الطلاق... فوقت الإنصاف سيأتي لينتشل الكبد وتزهر روحك بعدما جفت مع هذا الرجل.

لم ترد علي ودلفت غرفتها كأنني أحادث الحائط.

بحثت عن أمل في المنزل فوجدتها تجلس على السطح رفقة دميتها فقبلت جبينها واقترحت عليها أن نخرج للتسوق معًا ونشتري المثلجات في الطريق. وافقت بصمت ومسكت بيدي وملامحها تتوج بؤسا تقاومه بضعف. تلك الطفولة اختفت.. التمرد فيها أعلن انسحابه والثرثرة التي كانت ترافقها هاجرت لسانها... تدمرت؛ أنهكها القهر كثيرًا فالمناعة التي ستقاوم بها غير موجودة.. ترى وتصمت وتُرشف في قلبها... سيناريو كئيب يضعها على الحافة.. أقسم أنني أحاول إنقاذها.. أجاهد لأوصلها لبر الأمان لكنها ترفض مد يدها إليّ باستماتة.. فضلت العزلة وهاجرت بعيدا عنا... إنني أشعر بها، أدرك أنها لا تجد ريح والديها وتفند فكرة أنهما يبتعدان عنها بإرادتهما كي لا تكرههما... فالابن أيا كان طفلا، شابا، أو حتى كهلا لا يقبل تصديق أن والديه لا يريدانه، يظل دائمًا يردد الأعذار بدلا عنهما حتى يحتفظ بجمالية صورتهما في مخيلته حتى وإن كانت الصورة تنزف دما من كثرة الطعنات في قلوبهم.

نقودي شارفت على الانتهاء وليس لدي أي طريق سأسلكه هذه المرة سوى أفكار مبعثرة تضيعني.

كنت قد أفرغت المحل من كل شيء يخص أبي وأعدت طلاءه إلى أن أرتئي ماذا سنقوم به، فأمي لن تستطيع أن تمارس التجارة فيه وإلا كنت قد ملأته لها ببضاعة من اختيارها لكنها لا تفقه شيئا في هذا المجال إضافة إلى أن الحي بأكمله لن يقبل التعامل معنا.

فزوجة مصطفى قامت ببيع دكان زوجها وبيتها والعودة إلى البادية بعدما رفض أهل الحي تعزيتها فيه أو شراء شيء من محله بعدما افتضح أمره؛ فالميت يبقى أثره وعلى إثره يعامل الناس أهله.

انقضت عدة أيام والكآبة تحوم علينا شعورًا بأن شيئًا سيئًا سيحدث يخنقني. كان اليوم ينقضي علي بصعوبة، أصبحت متوترة طوال الوقت وأعيني تراقب أمي وأختي أينما حلّا.... أحضرت الحداد ليضع بابا يفصل بيننا وبين الطابق العلوي بعدما هجرناه فالخوف لازمنا منه من يوم الكارثة.

والأدهى أن والدتي بدت ملامح الاكتئاب تعلن عودتها بجرعة أخطر هذه المرة... أصبحت أرى حياتنا عبارة عن دوامة لا تكاد تنتهي مصائبها ولا يعرف لها مخرج... وأنا جددت وصالي بمن أعرف لأملأ جيوبي الخاوية مرة أخرى. فعلا مال الحرام لا بركة فيه ولا ينفع بشيء؛ بل يجلب النحس والحظ العاثر مهما بلغت رفاهية مالكه.

تعسرت حلقاتها كثيرًا معي وصرت أسير إلى المجهول بأعين مبصرة، لأنني بت مقتنعة أنه لن يحدث معي أسوأ مما سبق. فجسمنا يموت عن الشعور بالألم عندما يتعود على الضرب. وضرب الزمان لك ينهيك صدقني.

أردت خياطة جلبابين جديدين لفصل الشتاء فاتجهت للسوق لاختيار الأثواب... وأنا أزور المحلات سمعت صوت امرأة تناديني فإذا بي أجدها صديقة لي من أيام الدراسة... ملامحها لم تتغير لكنها كانت لا تزال جميلة وأنيقة.

حضنتني بقوة وسألت عن حالي وحياتي وطبعا اضطررت للكذب في معظم حديثي معها.. تركت لها رقم هاتفي لأنها راغبة في رؤيتي مجددا.

كانت صدفة جميلة لكنها مليئة بالحزن.. فالصدف دائمًا ما تحمل لنا الكثير من المفاجآت وأحيانا تغير لنا المسارات ... فهي مستقرة الآن في حياتها ومتزوجة وتملك ابنا؛ فرحة بما أتاها الله من فضله، منتشية طعم السعادة غير مجبرة على فعل ما لا تريد... أقسم أنني لا أحسدها؛ لكنني شعرت بالنقص أمامها، أحسست أنني أقل منها رغم أنها أشادت بجمالي وأناقتي ورقة كلامي إلا أنني مع نفسي كنت أبغضني.

ففي المدرسة لطالما غرتني درجاتي وحلقت بي أحلامي بعيدًا عنهم... كنت دائمة التحدث عن طموحاتي ومحطاتي التي سأصل إليها، إلى أن تعطل بي القطار عند نفق مظلم فلم ألحق بموعد نجاحي.

بعد يومين وجدت علياء تتصل بي وتطلب مني أن ألتقي بها خارجا... تم لقاؤنا فوجدتها متوترة وليست على سجيتها

- ما بكِ يا علياء لمَ كل هذا التوتر البادي عليك؟

- لقد تشاجرت مع زوجي وأمورنا معقدة بشكل كبير جدًّا أصبح ينفر مني بطريقة غريبة ويمتنع حتى عن معاشرتي.. لا يأبه لأمري بدأت أشك أن في حياته امرأة غيري يخونني معها.

ضممتها إلي وهي تبكي:

- لا تفكري هكذا ربما ظروف عمله أو المسؤولية هي التي جعلته بهذا الشكل. فترة وسوف تمر، هذه هي الحياة فقاومي.

- هل تذهبين معي لمكان بسرعة ونعود؟ أرجوكِ لا تتركيني وحدي.

في نفسي قلت: "يا ربي هل حياتي خالية من الحمقى لتسلط علي علياء هي أيضا"

- حسنا سأرافقك حيث تشائين.

اتجهنا إلى حي راقٍ جدًّا كله فيلات وإقامات فاخرة... دلفنا إحدى العمارات فوجدت حارس المبنى يسلم عليها ويقول لها إن باب الشقة مفتوح.. استغربت كثيرًا وألف سؤال هاجمني لكنني التزمت الصبر إلى حين صعودنا.

دخلنا الشقة من غير حتى طرق الباب فوجدت نساءً جالسات على مقاعد ينتظرن دورهن، ظننت في الأول أنها عيادة إلى أن اكتشفت أنها دار ساحر متخصص في الأعمال السفلى. بصراحة خفت من المكان فأنا لم أزر يومًا عرافًا ولم يقرأ لي الكف قط، والغريب أن البيت عصري لا يوحي بشيء ولا يوجد حتى رائحة بخور.

- لماذا أتينا إلى هنا يا علياء؟

- إن هذا الشيخ مبروك ويستطيع إصلاح أي شيء من زواج وإنجاب وعمل وحظ.. ولقد استعنت به مرة من قبل بخصوص زوجي وكان عمله ناجعا بطريقة رهيبة... لكنني الآن وقعت في نفس الحفرة من جديد وأي سلم أتسلقه لأنجو ينكسر بي... فأنا أعشق زوجي للجنون ولا أتخيل أن يضيع مني لذلك أنا على استعداد لفعل أي شيء ليبقى معي حتى إن كانت هذه الأشياء حرام لكنني سأتحمل إثمها.. فهذه حرب بالنسبة لي وكل الطرق مشروعة لأظفر به...

فسعادتي تكمن فيه.. أنا يا وردة وصلت لمرحلة خطيرة فقد أنتحر إذا تركني.

جاء دورها واتجهت إلى شيخها بينما أنا لم أعلق على كلامها اكتفيت فقط بالإصغاء لها..

بعد أقل من نصف ساعة خرجت وابتسامتها مشرقة، لم أسألها عما فعلت بالداخل ولم تفتح فمها هي أصلا بكلمة، ودعتها وعدت لمنزلنا وفكرة الاستعانة بهذا الشيخ في حل مشاكلي تراودني.

سألت إيماني وأنا في طريقي فاستهزأ بي لأنني لم أعد أؤمن بشيء في حياتي.. لا مبدأ ولا فكر أسير به نفسي... كذابة تبحث فقط عن قوتها دون حاجتها لمعرفة المصدر.

فالإيمان معتقدات.. فطرة تكبر مرتكزاتها معنا.. ينغرس فينا أثره بالنصيحة والعلم والفعل. الإيمان هو الطريق للخلاص. الخلاص من أعباء التساؤلات والشك... الإيمان يقين والسبيل نحو الهدى... إنه النور الذي يزيل سواد القلوب وينقي الطريق من الأخطاء.

الإيمان قضية.. عهد بين العبد وربه ودرع يحصنك من الوساوس... بيان بالحق وفارق بين الرشد والغي... هو بمثابة حبل النجاة وحبلي أنا كان منقطعا.

بعد أسبوع قررت زيارة هذا الشيخ عسى أن يمدني بشيء يشيل الغمامة السوداء التي تستوطن فوق حياتنا مانعة المطر من الهطول ليحل الفرج... أليست كل الطرق مباحة في الحرب لنيل الفوز في الآخر، لذلك أنا قررت تجربة كل السبل للنجاة فلا خسارة ستطالني.

انتظرت دوري وبعد برهة دخلت عنده.

كان رجلا عاديًّا جدًّا.. غير ملتحٍ ولا يرتدي حتى جلبابًا كالصورة المعهودة للشيوخ.. مكتفيا بتسبيحٍ يتخلل أصابعه... بادٍ عليه كأنه في سن الأربعين، أبيض الوجه وعلامة الصلاة تتوسط جبهته. ابتسامته توحي بالأمان.

جلست أمامه فطلب مني أن أشرح له مشكلتي وماذا أريد.

اختصرت له حياتي في حالة أمي والاكتئاب الذي يلازمها، وعن أختي أمل التي بدت ملامح الوحدة تمتلكها. لكنه فاجأني عندما قال لي إنني جميلة ولا أستحق المعاناة التي أعيش فيها.

باستغراب سألته:

- عذرًا سيدي ماذا قلت؟

- اسمعيني جيدًا يا ابنتي، سأكون صريحًا معكِ، لقد رأيتكِ الأسبوع الفارط مع علياء وأعجبتِني جدًّا وكنت متأكدًا من أنكِ ستأتين؛ لذلك لا تقلقي كل شيء سأصلحه معكِ وستفتح لكِ أبواب الخير من حيث لا تعلمين إذا طبقت ما أنا قائله لك بحذافيره فستنالين مرادك.

- أنا تحت أمرك فلقد ضاق بي هذا الوضع كثيرًا ولا أتمنى سوى الهناء.

- اتركي لي رقم هاتفك وسأبلغك بموعد لقائنا القادم.

ارتسمت الدهشة عليّ وتفاجأت من إعجابه الذي أظهره بتلقائية مريبة. لا يهم؛ يكفيني رؤية نتيجة تسر قلبي.

فكرت مليًّا في العلاقة التي ستجمعني بالشيخ منصور.. أدرك جيدًا أنني سأخسر الكثير لكنني مجبرة.. فعندما تقفل الأبواب أمامنا تجدنا إما ننسحب ونخسر أنفسنا بين زوايا الندم؛ وإما نتمسك بأي قشة حتى وإن كانت من سراب مع علمنا أنها لن تبلغنا إلى غايتنا لكننا مضطرون على تصديق أنها وسيلتنا الوحيدة للنجاة كي لا نقع فريسة تأنيب الضمير. لهذا قررت أن أتمسك بمنصور فلا خيار لي غيره كالعادة حياتي منعدمة الاختيارات فقط فيها إجبار وتنفيذ وندم بعدها.

غداء فخم ومطعم نال إعجابي جدًّا.. ظلّ فقط ينظر إلي ويبتسم كلما رفعت رأسي

- بصراحة يا سيد منصور ما زلت لم أعِ السرعة التي اقتحمت فيها حياتي.. رأيتني مرة واحدة والقدر أعد لنا لقاء يجمعنا فاستغللته وبادرت بإطراء إعجابك، الأمر الذي جعلني أستغرب.

- "فعلا يا وردة أنا أيضًا استغربتني عندما شدني شيء فيكِ لم أفهمه.. لأجدني أبوح لك بكل ثقة عما شعرت به.. لهذا أقترح عليك علاقة طويلة المدى نكون فيها لبعض دون خسارة شيء. إنني واضح وصريح بالطبع لن نتزوج ولن نعلن ارتباطنا وبقدر كتمانك لعلاقتنا سيكون مكوثنا مع بعض أطول. فنحن لن نخسر شيئًا هي فقط فرصة لتفريغ طاقاتنا والاستسلام لأنفسنا.. كل واحد فينا يملك مفتاح سعادة الآخر والباب أمامك الآن فافتحي القفل ولا تترددي.. فالتردد يقتل اللذة، وأنا وأنت في نضج تام وندرك ماذا نفعل وماذا نريد؛ ولأرواحنا علينا حق فلماذا سنحرمها من المتعة؟

أنا لست كاذبًا ولا أحب الطرق الملتوية أعجبتني وأردتك وآتيك طواعية وكلي بين يديك. فانسلخي من تأنيب الضمير والتفكير المميت وعيشي لحظتك وانفضي غبار الوساوس، فأنت شابة تستحق الدلال والاهتمام وخسارة نفسك من أجل غيرك ستحرمك من فرص كالذهب.

لا تستعجلي الرد لديك أسبوع من الآن ستأتين إلى المركز لأعطيكِ شيئًا سيغير أمك وأختك للأفضل وعلى ضمانتي وعندها أسمع جوابك".

ذهلت بصراحته الوقحة وأومأت برأسي بنعم.

بعد منتصف الليل بدأت أفكاري تتعارك وسط عقلي.. تفترس راحتي وتصعب عليّ الحياة.

يا إلهي هذا الرجل يلعب على نقط ضعفي، كأنه يستقر بداخلي ويعلم نزاعاتي مع نفسي وتناقضاتي اللا منتهية. فتناقضاتنا هي حبل المشنقة الذي يعدم استقرارنا.

منصور يجرني إلى العودة لما تنصلت منه باستخدام أسلوب الحاجة، يستغل ضعفي ويغريني بالفوز براحة عائلتي. لكنني هل سأظل أبيع نفسي بهذا الشكل القذر لأضمن لهما الأمان؟

هل سيكونان معي وأنا أحاسب يوم القيامة عندما تعرض جميع كبائري وأتمنى حينها أن أفتدي بأحدهم ولا أستطيع؟

هل سيشفعان لي ويدافعان عني كي لا تحرقني نار جهنم ولا تأكل بطني من شجرة الزقوم؟

اصمتي يا وردة؛ الآن بتي تفكرين في آخرتك؟ أوليس حصاد الآخرة هو ما زرعناه في الدنيا؛ وأنتِ لستِ سوى نبتة فاسدة جذورها متعفنة فلا تتوقعي حصول المعجزات معك أفيقي من سباتك.

تجملت ووضعت زينتي... ارتديت أرقى ما عندي... حزمت حقائب آلامي ووضعتها في تابوت حزني وأوصدته بقوة كاذبة.

قبل اتجاهي إلى منصور أخذت هاتفي واتصلت بعلياء:

- كيف حالك علياء؟ لقد نسيتِ وجودي من آخر لقاء بيننا؛ ما الأمر هل أنت بخير؟

- أنا بخير يا وردة وأشكرك على اتصالك؛ أنا فقط مشغولة مع عائلتي وبصراحة حالي مع زوجي أصبح جيدًا جدًّا وفرحتي بعودة الحياة لنصابها معه أنستني العالم من حولي.. ربما لن تفهي هذا فأنتِ لا تملكين زوجًا ولا تدركين كم هو مهم الحصول على الاستقرار والشعور بانتماء زوجك لأحضانك وأنك وطنه وملاذه.

- هذه أخبار جميلة فليجمع الله بينكما دائمًا في خير وأنا موجودة في أي وقت تريدينني فيه، اهتمي بنفسك وإلى اللقاء.

أقفلت الخط وانزعاجي من اتصالي بها أغضبني.. طريقة كلامها مستفزة يعني عندما كانت تعيش حالة غير مستقرة والمشاكل تدمر زواجها كانت تلاحقني بمكالمات لا تنتهي وتعدني صديقتها وملجأها وأنا كالحمقاء أجاريها وأذهب معها إلى أي مكان والآن حالما استعادت زوجها تغيرت وأرادت قطع العلاقة. لكنني لن أفوت تصرفها الفظ هذا معي وسترى من تكون وردة.

*****

الفصل الحادي عشر

" الفرح لم يكتب للفقراء؛ هي فقط سعادة مؤقتة
يضحك بها القدر عليهم"

صوت زغاريد يملأ الحي وصداه من منزلنا.. لم أفهم شيئا فدلفت

-أمي ما الأمر أتقيمين عرسًا لوحدك هههههه؟

- نعم إنه عرس والعروسة أنتِ يا وردة أخيرًا أتى فرج الله وسيستقيم حظك يا ابنتي.

- ما هذا الهراء يا أمي؟ عن أي عرس وعروسة تتحدثين؟ أنا لا أحب مثل هذا المزاح الثقيل أرجوكِ.

- أقسم أنني لا أمزح؛ بالفعل تقدم إليك عريس ومتأكدة أنك سترين الهناء معه.

أحسست بغصة وقلبي آلمني جدًّا.. فالفتيات يفرحن عندما يتقدم لخطبتهن أحد ما.. لكنني شعرت بالقهر عندما زفت أمي الخبر أمامي..

باستهزاء سألتها:

- ومن هو العريس إذًا؟

- ابن عم الجزار هشام لقد مررت عليه الصبح لآخذ طلباتي من عنده وأخذ يسأل عنا حتى اتجه إليك وأخبرني أن لديه ابن عم يقطن في فرنسا راغب في أن يتزوج ابنة بلده وسيأخدها معه لفرنسا، فرشحك له هشام وطلب مني أن أستشيرك وأجيبه غدا... بصراحة فرحت كثيرًا فلطالما تمنيت هذه اللحظة..

- أمي، بصدق سأسألك هل أنت مدركة لما تقولين؟ هل تظنين أنني فعلا سأحظى بزوج وعائلة وأنا التي نصف الرجال مروا فوق جسدها؟

- أصمتي يا وردة لا تذكري هذا أمامي أرجوكِ فأنا أموت كل ليلة عندما أتفكر حالك.. أمقت ما تفعلين ولست براضية عنه لكنني لا أملك حيلة لتغييره لهذا سعدت بموضوع الزواج على الأقل سيمنحك حياة دافئة وعفيفة تمسحين بها كل الذكريات السيئة التي طالتك منا.. لقد بلغت السابعة والعشرين الآن والعمر يجري يا ابنتي ولا بد لك من عبور نفق التيه الذي تعيشين فيه.

بنبرة حادة قلت:

- "وهل في نظرك أن هذا الرجل بليد لدرجة أنه لن يفقه أنني لست بعذراء، أم في نظرك سأجري عملية وأصبح بكرا ثانية وأخدعه فأنا لا شرف لي وتعودت على الكذب والخطيئة فعادي جدًّا أن أمارس رذيلة الوهن وتمثيل دور الفتاة التقية المحصنة.. بالله عليك كيف تفكرين يا أمي؟ هل تحاولين تزييف الحقيقة أم أنك تختالين نفسك ذكية؟ ولنقل إنني سأتزوج؛ من أين ستعيلين نفسك أنت وابنتك عندما أرحل؟ هل ستنهضين وأنت التي وجدت في الاستسلام راحة وتأكلين مال الزنا برضى؟ أنت وزوجكِ لوثتما قدري وحرمتماني من الفرحة فلا سماحة لكما.

دور الضحية الذي عشت فيه أعدم حياتنا... أنا لم أنسَ ماذا عانينا في صغرنا.. لم أنسَ وجه خالتي وهي تحتقرنا عندما تذهبين بنا عندها لتتسولي منها النقود وهي تقدمها لك كصدقة كأنك لست بأختها، تتعالى وترى نفسها علينا.. تنظر إلينا باستنكاف وتمنعنا من لمس أي شيء في بيتها كأنه من ذهب ونحن القذارة، إلى أن مزقت علاقتنا بها وأنهت معرفتها بنا لأننا لا نليق بمستواها مع العلم أن أباكما واحد لكن الفرق أن كل واحدة اختارت حياة مختلفة فهي أصبحت فوق وأنت وقعت أرضًا.

لم أنسَ يا والدتي برودك وأنا أتوسل إليك أن تقنعي أبي بألا يخرجني من المدرسة وأنت لم تحركي ساكنا كأن أمري لا يعنيكِ فتركتني له يفعل بي ما يشاء...

لقد كان بإمكانك فعل الكثير يا أمي لكنك فضلتِ العيش في الذل والقهر بلا قيمة.. فالمفروض أن يهدينا الزوج الحياة الكريمة ويكون لنا عونٌ وسندٌ والحامي الذي نفتدي به، لكن زوجك عكس الصورة وقلب الموازين وبات ذلك الرجل بلا كرامة، خالي الوِفاض من النخوة والرجولة، عارًا على أبناء نسله".

هوت دموع أمي بغير حساب لكنني لم أقصد أذيتها بكلامي فالموقف هو من جعل لساني ينطق دون استئذان... بنبرة هادئة قلت:

- ارفضي طبعًا عرض هشام وقولي له ليس لدي بنت للزواج.

- شكرا يا ابنتي على عتابك، فقلبك مليء بالكفر تجاهنا.. أنت تعلمين أنني لا أجيد الدفاع عن نفسي لكن فليشهد الله على أنني لم أذق طعم الهناء من يوم استشهاد روحك البريئة في سبيلنا... فليشهد الله أنني ألوم نفسي كل ثانية على القهر الذي سببته لكما... أنا لست بأم قاسية أو باردة لتقولي لي هذا الكلام الجارح فأنت أكثر من يدرك كم تحديت والدك ودافعت عنك وعن أختك وكم مرة حاولت إغاثتكما.. بذلت جهدي وأعلم أنه لم يكن كافيًا لكن هذه هي قوتي وعزيمتي ضعيفة.

- هذا واجبك يا والدتي وأقاويلك هذه ليست سوى مبررات فاشلة لن تغير شيئا لنا.. أنت طيبة لكنك كنت ضعيفة والضعف يضعنا تحت الأقدام.. وأنا لا ألومك فالقدر قال كلمته في حقنا لا حول لنا ولا قوة الآن.

أدركت أنني قسوت عليها فغيرت منحى الكلام:

- أين أمل؟ لم أرَها، لقد أهملتها يا ماما فلتعيريها بعض الاهتمام أرجوكِ فالفتاة ضاعت.

- إنها مع ابنة جارتنا تجلس برفقتها في البيت تستأنس معها أحسن من بقائها هنا.

- يجب أن نفكر في شيء نقوم به من أجلها هي رافضة للدراسة لقد مرت أكثر من ثلاث سنوات وهي على هذا المنوال، أريد لها حياة جميلة يكفيها ما عانت المسكينة.

علاقتي مع منصور مريحة جدًّا.. نلتقي مرة أو مرتين في الأسبوع على حسب رغبته هو.. قائم بمصاريفي على أكمل وجه وبشوش معي... لا أتدخل في حياته لا الشخصية ولا العملية من غير مرة واحدة حرضته ضد علياء بسبب ما فعلته معي فوافق بقطع التعامل معها من أجلي.

بأمانة ظننت أنني لن أعود لهذه الحياة وسأنظف جسمي من أوساخ الرجال وسأصنع حياة أخرى تكون عيدًا لي؛ لكنني أساق للقعر وأدفن في الوحل ولا طريق إغاثة أهرب منه...

البيت هادئ وأمورنا جيدة.. أرش الماء بعد أذان الفجر في زوايا المنزل وأبخر البيت بعد صلاة العشاء، أتأكد من وجود العسل على مائدة الإفطار المخصص لشفاء أجسادهما من كل خبث فيها... أضع الملح تحت الوسائد؛ المهم أنني أنفذ أوامر منصور بحذافيرها كي أطمئن على حالهما

فمهما صرخت في وجه أمي أو وبخت أمل فأنا لا أملك سواهما

اقترحت على أمي أن نؤجر المحل لأحد لكنها حظرتني فمن يستأجر محلا يرفض أن يخرج منه إلا بتعويض فالأحسن أن نحتفظ بملكنا لنا.

قلت لها أن تأخذه هي وأملأه لها بالبضاعة التي تريد وهكذا تغير روتينها فرفضت كذلك. لكنها فاجأتني عندما طلبت مني أن نبيع المنزل والمحل وننتقل لمكان آخر فتغيير العتبات يجلب الرزق فبيتنا بصراحة منحوس وجدرانه ملعونة.

حبذت الفكرة لكنني أعلم ما يخفى في صدر أمي لقد قالت لي ألف مرة أن نبيع المنزل وبعد فترة تنقلب على عقبيها وتنكر الموضوع.

*****

الفصل الثاني عشر

" وما بين المغفرة والنسيان صرح من الذكريات
الأليمة تمنع الصفح "

الرفض في عرفنا يعدونه كفرًا... تحريفا لركائز وضعها بشر ليسلبوا حرية الآخر في الاختيار ويصبح واحدًا من القطيع... وأنا قررت رفض اللوم الذي ينخر روحي والندم الذي يلاحقني كظلي وتقبل حياتي وواقعي لأعيش...

لكل شيء ثمن وضياعي كان لا بد لي أن أنتقم له...

الحياة مع منصور مختلفة هذه المرة... جردني من أشواك الندم العالقة بي.. أصبحت معه لا أخاف ولا يهمني شيء.. حرضني ضد القدر وأوصاني بصنع الفرص لا انتظارها.. ووجه آخر منه تعرفت عليه.

لقد أدركت أنه لا يهتم لأمري ولا يريدني له وإنما يراني كبضاعة سيبيعني كيفما يشاء... هو الآن الأسد وأنا من القطيع... حمايته لي كانت بثمن على الأقل يستغلني بطريقة آدمية فيها نوع من الإنسانية المنحرفة شيء لا منطقي... ولأنني اعتدت حقارة البشر لم أنزعج من منصور عندما ألقى ما في سره لي وأظهر حقيقته كاشفًا عن أعماله المشبوهة المليئة بالخبث.. مشعوذ ويمارس تقويد الفتيات اللواتي يتعرف عليهن من شغله كساحر... يستدرجهن حتى يتأكد من صلاحيتهن وبعدها يستعملهن كدمى كيفما يشاء.. لكنني كنت مختلفة عنهن كما يزعم هو، يفهمني ويقضي حوائجي ويدبر لي أمورًا كثيرة تخدم صالحي.

روضني جنسيًّا وعلمني كيف أصطاد الغنائم من فرائسي وقال لي مرة: "يجب عليكِ أن تستغلي كل من يعرفك يجب أن تأخذي لا أن تعطي، سأعرفك على أناس سيجعلون حياتك جنة فبدل

دراهم بخسة ستأخذين بيوتًا، سيارات، مجوهرات ثمنها يشتري حيك بأكمله، فقط اتبعيني".

تعجبت لأمر هؤلاء الرجال الذين يدفعون أموالا هائلة وهدايا فخمة وأشياء لا تعد ولا تحصى من أجل نشوة لا تأخد سوى بضع دقائق... سألت نفسي كثيرًا لماذا يخون الرجل المرأة؟ لماذا يفضل الحرام وهو يملك الحلال؟ لماذا يرتاح بين أحضان عاهرة ويشعر بالضيق وهو في سرير زوجته؟

ربما الحرمان هو من يجرنا نحو ارتكاب الآثام.

ربما يخون الرجل زوجته لأنها لا تلين له كما يريد ... فالزوجان يجب أن يكونا مرآة لبعض، نفسا واحدة في جسدين، لا حياء يجمع بينهما؛ وهنا تتضارب الشهوة مع الحواجز فلا يشعر الرجل بفحولته.. وطبعا عبارات مثل لا، لا يجوز، عيب، تثير جنون الرجل وهو في ذروة اشتعاله لأنه يرغب في امرأة ثائرة بين يديه متنصلة من حيائها، متحررة من قيودها.. منتشية لوعة الجنون وتمتلك رغبة الإمتاع والاستمتاع.... فمن خلال تجاربي أدركت أن العلاقة الجنسية الصحية هي التي يكون فيها مستوى العطاء مماثلًا دون أن يضر أحدهما الآخر؛ لأن الكارثة هي عندما يصل الرجل لنشوته ويهمل امرأته التي ربما لا تثار بسرعة فيتركها وهي لم تشعر بعد بتلك القشعريرة التي تهز بدنها سعادة وتجدد فيها الروح، والعكس صحيح أيضًا عندما تبرد المرأة في نصف العلاقة وتصبح جسدًا جامدًا يذيب نار الرجل فتتحول العلاقة الحميمية

إلى علاقة كلها ملل ورتابة تؤدى على أنها واجب عسكري وعند الانتهاء يدير كل منهما ظهره للآخر دون حتى كلمة حلوة.

ومع كل هذا فغريب أمر الرجال حقًّا.. فلقد قابلت من يقول شعرًا في حق زوجته ولكنه رغم ذلك يخونها.. يشتري الذنب بالمال ويترك الحسنة التي تعطى له مجانا...

مواجهتي لنفس الحياة أكدت لي أن القدر لم يعطني حق الرحيل بعد، بكيت كثيرًا وطلبت التوبة في كل حين حتى استسلمت لكل ظرف يأتي وقبلت اللعب مع الزمان.. ربما نضجت أكثر أو ربما فهمت مساري أفضل... المهم أنني هذه المرة لن أحيل أمري للأيام لتحكم بل سأعلن أنا الفتوى.

أول زبون أمنه لي منصور كان صفقة لم أحلم بها أبدًا... قضيت معه يومًا واحدًا فكنت فألا حسنًا عليه عندما جاءته البشرى أنه حصل على ترقية كبيرة فقام بإعطائي شيك بمليوني درهم إضافة إلى أجرتي وسمسرة منصور... الأغنياء يزدادون غنى فتراهم ينفقون أموالهم في كل شيء في حين أن الفقراء لا يجدون من يتصدق عليهم.. الفقر لعنة وكفر..

راودته عن نفسه... كان يناديني بصاحبة الأثداء المثيرة... حتى أصبحت مفضلته..

من أول مرة زاولت فيها عملي هذا حالفني الحظ، لم أقع في مشاكل مع الزبائن ولم أتعرض للابتزاز من طرف قوادين لأنني في الأساس لم أكن تابعة لقوادة معينة أو دار دعارة تشغلني، أما منصور فهو صاحب مشروع لا يهمه سوى عمولته ولا يفرض عليا

أحدًا، إلا أنه لم ينم معي منذ أن بدأ في إيتائي بالرجال.. حاولت التقرب منه مرة لكنه امتنع عني..

أهملت أمل عنوة لأرى أمي ماذا ستفعل... تركتها تتولى أمرها وتحاول هي النظر في أمرها.. هيأت لهما الراحة المادية ووفرت لهما أشياء أكثر مما يحتاجان وتواريت عنهما في اتخاذ قرارات بخصوصهما عسى أن تعي والدتي بأن لها مسؤولية تجاه ابنتها الصغرى وهي الرعاية والاهتمام. كان لا بد لها من احتوائها وإعادة بناء جسر الأمومة الذي أهدمه إهمالها. والبناء يحتاج لوقت طويل ونفس حار لإعادة المياه لمجاريها رغم أنه لا يمكن استرجاع ما فقدناه مهما كان التعويض.

- ألو وردة أين أنتِ؟ أرجوكِ عودي بسرعة للبيت أتوسل إليكِ.
- ما الأمر يا أمي لقد أرعبتني.
- لا وقت للشرح تعالي وستفهمين كل شيء.

قفزت من مكاني عندما تلقيت مكالمة أمي، لم أعِ ما الذي يجري، حاول منصور تهدئتي لكن حالة من الخوف انتابتني، أردت فقط أن أصل للبيت.

عويل يصدع والجيران تصطف أمام المنزل.. ركبتاي أصابهما الشلل وأنا أدلف من الباب... نظرات الأسى في أعين الناس وعبارات العزاء تتلى كاد قلبي يقف عن الخفقان من الهلع.

أمي تبكي وأمل تعانقها وصوت القرآن يملأ المكان.... النساء تلتف حولهن أزحت أجسامهن من أمامي وركعت عند أمي:

- ما الذي يجري؟ ردي عليّ.

- والدك؛ والدك يا ابنتي قد انتحر في السجن في البارحة وسوف يأتون بجثمانه بعد صلاة العصر لنستلمها وندفنه.

بحدة لم أعلم من أين أتيت بها:

- بالطبع لا؛ لن نستلمه ولن نتكلف بدفنه، مات والله غاضب عليه وهذا مصير من يتخذ حياته لهوًا وحقدًا وكرهًا وظلمًا لأبنائه.... امسحي دموعك وأخرجي النسوة من هنا وأطفئي القرآن وأنهي هذه الجنازة فلا ميت لدينا لإقامة الحداد.

بصوت خافت قالت أمي:

- لكن يا ابنتي هذا يظل أباك وواجبنا دفنه وإقامة العزاء في حقه ومهما فعل لنا فهو الآن في دار الحق تركناه لخالقه هو يتولاه ولا يجوز رميه فهذا عيب في حقنا نحن والناس ستتكلم علينا يكفينا فضائحنا التي تروى كقصص بينهم... أرجوكِ لا تدعي الحقد عندك يمنعك عن فعل الصواب مهما كان هو خاطئا.

- لقد كان كافرا معنا يا أمي.. يستحق حتفه هذا فلا رحمة ولا مغفرة له... أنت لا تدركين كم هو صعب علي مواجهة موقف كهذا، لا تفقهين كم هو مقيت أن يموت والدك منتحرا وفي السجن. لن تشعري بألمي لأنني لا أقصد ألم الفقد، لا لا لكنني أعني ألم الذل الذي أورثني إياه أنا وتلك الصغيرة التي بجانبك.... أنظري إليها تعاني في صمت يجلدها سوط العار وتصبر، لقد دعوت الله كثيرًا أن يتغير حاله ويصلح نفسه وأراه أبا لنا... حاميا

لبيته، معيلا لعائلته، قدوة لبناته وتقيا مع ربه... محبا لزوجته ومستأنسا بها.. أردته أن يجعلك مشكاته، وسادته التي يصب عليها همومه وأحزانه... تمنيت فقط أن يكون لنا أبًا، ليس بالمال بل بالإحساس والحنان. لذلك لا فرق الآن وهو ميت فأنا يتيمة الأب منذ أن كان حيا، لكنني حزينة لأجله فكيف له أن يضيء قبره الآن وهو لا يحمل معه سوى ظلام سيئاته".

أخرجت كل من في البيت وأقفلت الباب.. أمل وجهها شاحب والحزن مرتسم على محياها بشكل مخيف. أحسست في لحظة بالذنب تجاهها فأنا ربما حرمتها من وداع أبيها للمرة الأخيرة لكنني فكرت في مصلحتها فلو جاؤوا بجثمانه لن تسمع من الناس كلمة حسنة وهذا سيؤثر عليها أكثر وسيشعرها بالإهانة.. فالأنام لسانهم سليط يتكئون على الآخرين بسكين يذبح القلب قهرا.... لذلك تصرفت على هذا النحو فيكفيها ذكريات الأسى التي تحفر جدران جعبتها فلا أظن أن من يهدينا الشوك سنرغب في رمي الورد على قبره..

مرت الليلة كئيبة جدًّا.. والدتي لا تتحدث معي... ظلت تقرأ القرآن وأمل تائهة وسط البيت لا ركن فيه يريحها. أما أنا فالحسرة تأكل أحشائي كل شيء عشناه معه عرض أمامي كشريط.... صحيح أنني أكرهه وهذا خارج عن إرادتي طبعا فلو مد دلو الود لملأه بالحب لكنني حزنت لأمره، فأن تعيش حياتك كلها بعيدًا عن الله تائها بين أزقة الذنوب مرتديًا الخطايا ولا يهبك الرحمان الهداية ولا يرغب في إمساك روحك وأنت تائب أشد أنواع العذاب...

خفت عليه من العقاب فدعوت الله أن يخفف عنه الحساب... فليرحمك الرب يا أبي.

راودتني أسئلة كثيرة ليلتها.. كيف انتحر؟ وما الذي أدى به إلى إنهاء حياته بهذه الطريقة فهو لم يلبث سوى بضعة شهور أبهذه السهولة استسلم وقضى عليه حال القضبان وهو الذي لا يعترف بزلة ولا يأبه للأيام... كان بإمكانه أن يستغل حبسه ليتوب ويبدأ صفحة جديدة لربما ساعده ربه فالله عندما يرى نور الندم فينا يأخذ بنواصينا ويفتح أمامنا أبواب الصلاح ويهون ألم المعصية مهما عظمت.

حياة أبي انتهت بشكل محزن؛ لم يعش نقيًا كالناس ولا مستمتعا كغيره، بل كرس سنينه في الفقر والضياع. لم يكن يملك عائلة؛ أذكر ذات مرة سألت أمي عن نشأة أبي وأصوله فأخبرتني أن أباه توفي في حادثة سير وهو في سن الخامسة من عمره فتركته والدته عند جدته ورحلت دون عودة حاولوا تتبع أثرها لكنهم فشلوا. كبر يتيما متخلا عنه منبوذا من الجميع.. لم يكمل دراسته بسبب عدم وجود معيل ومراقب وبسبب أيضًا التعنيف اللفظي الذي كان يتعرض له من طرف أصدقائه الذين يعايرونه بأمه وبنسله المدنس... اتجه بعدها لتعلم الميكانيكا عند أحد الحرفيين مقابل دراهم بخسة... ماتت جدته التي كانت تضمن له المبيت عندما يحاول أعمامه طرده ليجد نفسه في الشارع في سن الرابعة عشرة دون أي شيء.. لم يكن له نصيب من ورث أبيه حقه أكل وبات مذموما مدحورا... فبدأت رحلة جديدة معه، رحلة من دون وجهة كلها شقاء وقلة تفكير إلى أن استقر به الحال عند جدي فوهب له

مستقرا وأهداه عائلة لكنه دمرها... فالله يبعث لنا سبل النجاة والبعض يدعسها بقدمه يفضل البقاء في القاع.

لكنه كان معقدًا من النساء بسبب فعلة أمه فالكل كان يقول إنها هاجرت مع عشيقها مستغنية عنه.. لذا وجد في أمي وفينا موضعًا للانتقام يرد الصاع عن طريقنا.. فأول مثال يراه الابن عن معشر النساء هي الأم فمنها يبدأ بتكوين أفكار عن تلك التي ستكون نصفه الثاني.. من الأم يستلهم ويتعلم كيف يتعامل مع المرأة إما بود واحترام أو بتجبر وافتراء. أبي رأى كل النساء خائنات ولا خير فيهن وهذا أثبتته أمي له أكثر عندما تزوجها وهي ليست ببكر بل امرأة مارست شرائع الزنا فظلت رخيصة في عينيه.

تلقينا من أبي جميع أنواع الأذية.... وعندما يلجأ المرء للأذية فاعلم أن الغضب أطبق عليه حتى استوطن الحقد على أفكاره فأصبح يرى في الانتقام شفاء للروح يروي ظمأ القلوب المريضة المغلفة بغشاء الشر.

قررت إيداع أبي في رف الماضي والمضي قدما... ستنسى وستتبخر الذكريات معه تاركة الندوب لكنها على الأقل سترحل كما رحل لكنني لم أقوَ.

كل شيء باهت... ظل طيف أبي يرافقني لأيام... أخرجت له صدقات عبارة عن مساعدات لأسر معوزة. لم أفهمني عندما فعلت هذا أكثر من مرة في أقل من أسبوع طبعا من دون علم أمي فهو لم يحبني ولم يحتوِ أيٍّ منا، ولم يمنحني ولو شيئًا واحدًا جميلًا؛ أذكر أنني أسميته الغراب وأنا صغيرة لشؤمه وعبوسه..

هو بصراحة لم يترك لنا ذكريات بل ترك فضلات برائحة الألم الكريهة.

أحسست بفراغ كبير لم أعهده من قبل في داخلي... تمنيت له الموت أكثر من مرة من شدة قهري وألمي لكنها عندما جاءت وأخذته لمتها، أردتها لو تأخرت كثيرًا جدًّا.. لو أنها أهدتنا فرصة للتسامح والعناق... فلقد غادر دون وداعنا، دون إنهاء الخصام وإعلان العفو لترتاح الأرواح وتصفى القلوب. غادر دون تصحيح أخطائه معنا أو حتى تجميل صورته أمامنا.. غادر كأنه ليس منا وليس لنا حق فيه.

هو من أعلى بناء جدار الكره بيننا... كان من السهل هدمه بكلمة طيبة منه لنا تزيح كل أنقاض الحزن من فوق صدورنا.. والله كان بإمكانه لم شملنا وجعل قدرنا أجمل لو أنه أهدى لنفسه فرصة التقرب إلينا.

فالحياة تهدينا ألف فرصة للخصام وعندما يأتي الفراق تغتال الحياة فرصة اللقاء لتصحيح ما فات فتتركنا نحترق حسرة ولومًا.... فالموت دون وداع قهر أبدي لا ينسى.

أشعر أنني ممزقة، متناقضة في تفكيري... أطلب له الرحمة وبعدها ألعنه... فهو غادر الحياة لكنه لم يغادر مني.

*****

الفصل الثالث عشر

" أن نقاوم ما أمكننا، ألا نسقط، أن نوصد كل الأبواب، أن نتصلب، أن نفرغ أذهاننا من الماضي. أن نطفئها. ألا نترك أثرًا منه في الرأس. ألا ننظر إلى الوراء، وأن نتعلم ألا نتذكر"

الطاهر بنجلون

غاية التفكير هو إيجاد حل... أن ترهق دماغك بالتفكير الطويل وتستغرق سنين من حياتك وأنت فقط لابث في دوامة التفكير هو فقط ضياع واستنزاف للطاقة وفشل في عدم القدرة على اتخاذ قرار لتغيير وضعك. التفكير أنهك أمي جدًّا أخذ منها الكثير حتى تركها في الحافة تصارع للنجاة بعقلها.

تسترجع ذكرياتها مع أبي وتؤنب نفسها على صبرها الذي أذاها، حطمها وأنهاها. كانت تملك خيارات كثيرة تجردها منه، كان بإمكانها أن ترمي متاعه في الشارع، تهينه، تكسر كبرياءه وتنتقم منه؛ لكنها فشلت في المقاومة لأنها ببساطة أظهرت ضعفها.

بغض النظر عن كل السوء الذي عايشناه في الفترة الأخيرة كنت سعيدة جدًّا بأمل فأخيرًا وجدت ضالتها ورأيت فيها النور مبصرا من جديد.

يحتاج المرء دائمًا إلى مهرب.. إلى ملجأ يعتصم فيه ليتجنب الضغوط التي تمارس عليه.... يحتاج إلى متنفس ليتحرر من التلوث الذي يحيط به لهذا اختارت أمل المطبخ لتنسانا... هي أذكى مني لقد فازت بنفسها عكسي تماما...

عندما أبدأ في ترتيب تفاصيل حياتي أجدها مشوهة بلا ملامح... كلوحة ملطخة بكل الألوان الحزينة لا روح فيها... أجدني ألومني في كنف صمتي وأدفنني في تابوت الويل كلما انفردت بي....

فأي منا عندما يختلي بنفسه ويفكر في نهاية معاناته كيف ستكون تجد ذلك الشعور الممزوج بين الخوف والفرحة؛ الخوف

من أن تظل أسير المعاناة طوال حياتك والفرحة عندما ترى كل الألم يتبخر ويتبدد الهم وتعلن ولادة جديدة لك. وأنا أرغب جدًّا في ولادتي من جديد وأعلم أنني إن لم أجهض شروري فلن أنجبني. فأنا لست شريرة لم أؤذِ أحدًا قط في حياتي.. لم أتجبر ولم أنتقم، فانتقامي كان من ذاتي فقط التي أجلدها بسوط الآثام كل يوم.

سمعت مرة أن حواسنا ستشهد علينا يوم القيامة وستنطق بالحق، وحواسي دنستها فهل ستسامحني يا ترى؟

أصبحت أعيش في صراع داخلي يكبر معي يومًا بعد يوم ولا أعلم كيف سأنتصر علي..

زاد وزني في الفترة الأخيرة بشكل كبير.. جسمي تمردت فيه مفاتني وشكلي أصبح أجمل بكثير... أنا أهتم بنفسي بدرجة كبيرة لكن هذه المرة كان شيئًا آخر مسؤولا عن هذا التغيير.

سألني منصور ذات مرة إن كنت حملت ذات مرة أو أجهضت فأجبته بلا طبعا رغم كثرة ممارستي إلا أنني لم أحمل معي ابن أحد في رحمي. دخلني الشك في نفسي بعد مدة فقررت زيارة طبيبة توليد.

عزمت وذهبت قلت إنني متزوجة من سنتين ولم أحظَ بأولاد، كشفت علي وطلبت مني القيام بتحاليل ستظهر لنا حقيقة عدم إنجابي.

بعد أسبوع اتجهت إليها لمعرفة النتيجة التي كنت واثقة منها قبل رؤيتها.. فنحن النساء نثق في حدسنا وندرك ماذا يجري بداخلنا، لا نتوه عن ذواتنا بل نعلم جيدا ما فينا وتوقعاتنا لا

تخطئ... رحمي عقيم وهذا ما أكدته لي الدكتورة. فشلت، أحسست بنقص، بعجز وبسعادة.. سأكمل حياتي وحدي لن أتزوج ولن أؤسس عائلة، لن أسمع كلمة ماما ولن أستطيع رؤية بطني وهي تنتفخ أمامي حتى أعجز عن ارتداء حذائي..

رحم قاحل وحياة بلا معنى... هذا ما أنا عليه...

سعدت لأنني لأنه لن يقع حيوان منوي في بويضتي ليتكون جنين ربما كنت سأقتله قبل أن يكمل شهرًا في رحمي... فأنا لم أكن مستعدة لتحمل مسؤولية طفل سينبذه المجتمع مهما أعددت له حياة من الرفاهية..

تناسيت موضوعي لأنني يجب أن أكمل من أجلي... ذرفت أدمعي ومسحتها وأكملت المسير.

أمل تفننت في الحلويات التقليدية جدا.. أتقنت الأشكال وأذهلتنا بالمذاقات لهذا قمت بشراء محل صغير كبداية مفاجأة لها... جهزته وحضرت فيه كل الأشياء... هو محل سيتكلف ببيع الحلويات بتسويق لجميع الفئات.. فأنا صممت المحل بطريقة عصرية لا من حيث الألوان ولا من حيث الشكل وأسميته " حلويات أمل " تاركة لها بعدها الحرية إذا أرادت تغييره.

ستتشارك فيه هي وأمي، فوالدتي لديها الكثير لكنها تفضل القوقعة التي تحجز نفسها فيها... هذا المحل أقمته ليعرفا الحياة الأخرى... لينفكا من الأسر والعزلة ويتجردا من الروتين والكآبة.

أصارع من أجل بقائهما وهنا لا أنعتني بالبطلة لكنني فعلا أحتاج لأن أكون بطلة كي لا نسقط جميعًا فلا يد ستساعدك على النهوض عندما تهوى بك الأرض. لهذا يجب على المرء ألا يعتمد على أحد ولا ينتظر شيئًا من أحد ولا يستجدي رحمة أحد... فهناك واحد أحد هو الله هو من يهونها من سابع سماه.

لإخبارها بالمحل أردت أن أفاجئها بشكل يسعدها... بشكل يشعرها أن لها كيانًا في هذه الحياة سيؤهلها لتبدد كل العدم الذي عاشته.. قلت لأمي إنه من الأفضل أن نذهب للغداء خارجا فالفصل صيف والبيت لا يجلب سوى الملل... كانت أمل جميلة يومها وأمي ارتدت لباسًا مع نقاب متناسقًا جعل عينيها تشع بريقًا فهي أحبت النقاب الذي كانت قد ارتدته أول مرة لتتجنب النظرات وتغطي التشوهات لكنها وجدت فيه راحة حللت خوفها وجرفت كثبان الحصى العالقة بصدرها.

لم أشهد فرحة بذلك الحجم حتى رأيتها في أمل... وقفنا أمام المحل واضعة المفاتيح في يديها أبشرها بخبر امتلاكها لحلمها... كانت معجزة بالنسبة إليها بعد سنوات من التيه والمجهول، فمهما تظاهرت الظروف بعقم الفرص يأتي الفرج ليزيح من دربك الأنقاض.

أؤمن دائمًا أن الله يستحيل أن يترك المرء يعاني طوال حياته، سبحانه يمتحن صبرنا؛ لكنه لا يهون عليه رؤية عبده ذليلا أمام الحياة أو مكسور الخاطر. وأمل تجردت لسنين من الفرح فجاء أوان نصرها.

بموسيقى شعبية وصديقات أمل اللواتي دعوتهن دون علمها وبعض الجيران، افتتحنا اليوم الأول في المحل بتقديم الحلويات مجانا وإمتاع المارة التي ستصبح بعدها زبائن.

انتهى الاحتفال بإقفال باب الحزن من حياة أختي وإعلان بداية جديدة تحمل هي مشعلها حتى تبلغ منتهاها بنفسها.

عدنا للمنزل بعدما رتبنا المكان واجتمعنا في حضن أمي في سرير، أخذنا نعيد تفاصيل اليوم ونقابل المواقف بالضحك حتى طلبت مني أمل الإنصات إليها.

- "أختي وردة، أنا من الناس الذين لم تراودهم الأحلام ولم يعرفوا معنى الطموح، النجاح، أو حتى العمل.. أنا فتاة تخبطت منذ صغرها في المصائب.. حياتي من بدايتها تعنونت بالألم... قبلت بالرمادي في حياتي، في المنتصف أجدني، الحيرة والشك يباغتانني في كل شيء.. لم أكن سوية اللسان، لم أدرس، لم أحظَ بأب، لم تهتم بي أم بالمعنى العرفي للكلمة وآسفة يا أمي على قولي هذا لكنني أحتاج لأن أتكلم دون خشية أحد.. أختي هي فقط من شهدت عليها تكابد لتنجو بي بنفسية أقل ضررًا... كل شيء محفور في ذاكرتي... والسيئ فيها يملأ الجدران..

بيني وبين نفسي ابتكرت شخصيات جعلتها عائلتي بدلًا منكم أقضي معهم أوقاتي. لا لا لم أبتكرها بل تركتكما أنتما مع إعادة ترميمكما بداخلي كي لا أكرهكما. أعدت بناء أمي بأم قوية لها علاقة جميلة مع أبي، أعدت إصلاح أبي بأب يملك حنان العالم بأسره.. وأعدت تجميع أشلاء أختي التي أراها أنجح طبيبة في الكون.

أعاتب أختي على شيء واحد فقط هو عدم إعطائي فرصة توديع والدي... أعلم أنه كان سيئا بدرجة مشوهة... مقزز ومحشو باللعنات؛ لكنه يظل مني.

كنت راغبة في تحسس وجهه بيدي لمرة واحدة فقط وتقبيله فأنا لم أقبل أبي قط، لم أدلف بين أحضانه، ولم أنم بجانبه. الحنين له يقتلني، لوعة الشوق بداخلي تحترق من الحرمان فليس من العادي ولا من العدل أن يحظى الطفل بأبٍ منعدم الإحساس، يشعرك دائمًا بأنك لست من دمه ولا تحمل جيناته، منبوذ لا قيمة لك. يراك كخطأ فادح ملتصق به مع عدم القدرة على تصحيحه.

أنا آسفة لا أرغب في إنهاء اليوم بحزن هي فقط مشاعر متضاربة تتعارك داخلي أحببت إخراج القليل منها كي لا تظل قابعة في جوفي... فأنا كرهت الصمت والكتمان.. مللت من النظر والتدوين دون القيام بتغيير...

وردة أنا لا أعلم كيف سأشكرك أو كيف سأرد لك ربع ما تقومين به من أجلي... اليوم بالذات تمكنت من إعطائي الحياة، لأول مرة أتنفس وأدرك أنني كائن لي كيان ووجود. أعدك أنني سأكافح لينجح هذا المشروع ويصبح له صدى وسترين ما أنا قادرة على فعله".

أسعدني جدًّا كلام أمل.. تحسست في نبراتها بالثقة والرغبة في تحصيل المبتغى.. وللعهد الأول تزورنا فرحة حقيقة ذات رائحة زكية انتشرت بين زوايا المنزل.

نستطيع زج كل الأشياء السيئة في سجن الماضي إذا تقبلنا الواقع وأعدنا النظر في خطانا ورسمنا طريقا آخر لنا.. فما يجعل حياتنا راكدة في مكانها لا تتحرك هو تقييد أفكارنا بما مر علينا والقهر الذي تعرضنا له فيظل الخوف يحاوط أقدامنا، وأعيننا لا ترى سوى الحفر فنضيع.

لذا تعلمت من الحياة ألا أخجل منها.. أراوغها وأبحث فيها عن نفسي كي لا تضعني في الهامش...

*****

الفصل الرابع عشر

" الكلمات ليس لها عظام، لكنها تستطيع أن تكسر العظام... "

ثيودور كاليفاتيس

الأصداء إيجابية جدًّا والحماس يتغلغل في أمل وأمي... أباشر معهما العمل عندما أكون فارغة الوقت..

وشيء جديد طرأ على حياة أمي أنها قررت الانخراط في جمعية لتحفيظ القرآن الكريم. تحتاج لشيء يشفي قلبها ولا شيء أبلغ ولا أحسن من القرآن ليروي ظمأها.

بدا عليها السرور وهي تذهب للحصص.. تأتي نشيطة وتحكي لنا تفاصيل ما تقوم به هناك.

كنا نستمتع بحياتنا.. أنا عملي يعرف ربحًا وراحة كبيرة جدًّا خصوصا عندما أصبحت عشيقة رجل واحد بعدما جمع بيننا أكثر من لقاء فأعجبته فقرر جعلي معه فقط وهذا ما أوصى به منصور.

بدأت أخاف من نفسي... كأن حياتي باتت تروق لي وعملي يمتعني.. أفكاري أضحت مشوشة تتألم من كثرة التناقضات وعدم قدرتي على طرحها أرضا..

لكنني وبالرغم من كل هذا استطعت توفير الكثير من المال وباشرت في شراء شقة مجهزة، لم أخبر أمي ولا أمل بعد إلى حين استلامها. فكرت في شراء محل آخر صغير وإبقائه مقفلا إلى حين معرفة ماذا سأزاول فيه المهم ألا أضيع النقود التي أملك... جسمي لن يدوم جماله ورغبتي الجنسية لن تبقى متيقظة دائمًا فمن البديهي أن أؤسس شيئا لي قبل فوات الأوان، لأنني بت متأكدة أنني لن أحظى بأطفال سيكونون سندي يوما ما..

فكرة أن لن تنجب أولادًا أبدًا هو بمثابة مقصلة في حق المرء... كأنك مبتور بلا أطراف... جسم مشلول غير قادر على الحركة... حاولت أن أتناسى الموضوع، أن أملأ فكري بأشياء، بمشاكل كي أتغاضى نقصي هذا لكنني لم أستطع... تبارزت مع الليل كي أنتصر عليه وأقوى على النوم دون اغتيال الهواجس والأحلام الموءودة من التحقيق، والمعجزات المنفية عن عالمي.

سأتقبل نقصي كما تقبلت كل شيء قبل ذلك... فلا أحد يؤنس وحدتي سوى أفكاري المبعثرة تلك المحترقة بنار التأجيل المنثور فوقها رماد التمني الواهي...

يظل الإنسان يعيش بين الاستقامة والضلال... مرة يغلب عليه إيمانه ومرة يقيده شره..

أمي تستنشق هواءً نقيا بعدما انخرطت في حفظ القرآن... يضمحل يأسها وتهوى أعباء الشك بداخلها... تسترجع كيانها وتستعيد بناء نفسها من جديد، تراجع ماضيها، أخطاؤها والظلام الدامس الذي غطى جزءًا كبيرًا من حياتها..

أضحت تقارن وتراجع الكثير من الأشياء التي كانت غافلة عنها... بدت سعيدة بهذه التجربة فلا شيء يضاهي اقتراب العبد من ربه وهو في ذروة اشتياقه لإحياء إيمانه... ووقت الشدة يبرهن كم نحن في أمس الحاجة للتعلق بالله أكثر وأكثر، ففيها يستلذ المرء طعم التقوى ويمارس طقوس عبادته بخشوع فاصل نفسه عن العالم الخارجي معتكفا بقلبه لا فتن تغريه. ففي طريق التوبة

يتخلل العبد شعور ممزوج بالنفاق والتأنيب، النفاق عندما يظن أنه يعصي بكل وعيه وبعدها يأتي يطلب المغفرة لا يدرك أنه أواب يسارع في محو أخطائه ويفعل الصواب.. والتأنيب على ما فعل من سوء حتى يستحي من ذكر ما هو آثم فيه... وليس كل الناس بقادرة على الاعتراف بذنوبها وراغبة في التوبة؛ هم فقط من اصطفاهم الله عندما رأى في قلوبهم حبًّا ورحمة من يمن عليهم بالهداية.

لكن وبالرغم من السعادة الكامنة التي استقرت في أيام أمي، إلا أنها أحيانا كانت تعود من الدار وهي على غير سجيتها... عيناها مليئة بالدموع المسجونة... فالدار تعطي دروسًا في الدين إلى جانب تحفيظ القرآن.. فربما كانت بعض الدروس تمسحها من ناحية ما فتوقظ الخوف بداخلها.

أمي أمٌّ صالحة... لا تهويها النميمة ولا تهتم للناس.. لا تتمنى الشر لأحد حتى أبي الذي جعل حياتها جحيمًا لم تكن تريد له الأذى.

نعم؛ ارتكبت إثما وكانت مراهقة بلا لجام، تعرضت للاستغلال في فترة عانت فيها الفقد والوحدة. ومنطق المقاومة كان غائبًا عنها غير مدركة أنها تقوم بالغلط... ففي حالات كثيرة يتملك الإنسان حالة شتات لا يقوى على ضغط زر المنع فيقع في ما لا يحمد عقباه.

الأيام تأخرت في إعطاء مريم السلام... الحزن ما زال يغشي ثنايا روحها... تبتلع غصتها وتشرد بتفكيرها في عالم آخر لا نسمع فيه حسيسها... مشكلتها كانت تكمن في عدم قدرتها على مسامحة نفسها وهنا يعيش الإنسان في صراع مدى الحياة ولا يستطيع أبدًا أن يبدأ من جديد...

ملل يحاوطني هذه الأيام.... رغبتي منعدمة أمام كل شيء خصوصا بعدما أصبحت أمي تعاملني بطريقة فيها نوع من النفور لم أفهم لماذا... سألت أمل إن كانت تعرف ماذا يجول في رأس أمي لكنها لم تكن لها أي فكرة... اعتلاني الشك فأنا وهي علاقتنا جيدة ولا مشاكل بيننا فلماذا تضع حواجز بيني وبينها هذه الفترة؟

فكم هو غريب وصعب أن ترى من حولك يتغيرون عليك وأنت لا تفقه الأسباب... تراودك أفكار بأنك مقصر في حقهم لذلك بهت وجودهم حتى فضلوا البعد على البقاء معك. لكنني؛ لم أقصر مع أمي لتعاملني بهذا الجحود.

على مائدة العشاء أخذت أمل تروي تفاصيل يومها في المحل وعن أفكار تريد القيام بها لتساعد في زيادة إيراداته أكثر، بدا الحماس والسعي قويين فيها إلى أن نطقت أمي قائلة:

- ما دام أصل المال حرامًا فلن ينجح شيء معكما.

تملكتني الصدمة من قولها فبهتّ في مكاني لم أنبس بحرف تزعزع كياني كأنني أصبت بصاعقة ...

كيف لفاهها أن يقول قولا كهذا وهي التي تعلم علم اليقين الحقيقة البشعة التي بسببها سلكت منهجي هذا؟

ردت أمل عليها:

- ماذا تقولين يا أمي؟ إني أشتغل في المحل بكل كد ومالنا حلال والحرام هو أن تقولي هذا لنا بهذه القسوة.

- أنا لم أوجه الكلام إليك يا أمل، كلامي موجه لوردة التي تعي جيدًا قصدي.

- نعم يا أمي، ماذا تريدين سماعه مني الآن، هل سنعيد نفس الأسطوانة كل مرة ونكرر الظروف والماضي الأليم كي نعلل ما وصلنا إليه، أم أبوح بما هو مدفون.. هل أصبحتِ الآن مفتية وستمارسين دور الداعية علينا؟

- فتاة وقحة هل نسيتِ أنني أمك كي تتجرئي وتكلميني بهذه الطريقة؟

- لا لم أنسَ، أنت من نسيتِ أن هذا نتاج صنع يدك فلا تلقي باللوم علي.. وبما أنك كنت تريدينني أن لا أسير في هذا الطريق الخطأ كان يتوجب عليك أن تكوني أمًّا.

- لقد أصبحتِ فعلا تجيدين الكلام بقلة احترام يا وردة والواضح أنني لم أربيكِ جيدا لذا أستحق ما أسمع... أستحق أن أرى ابنتي

تدوس بنجاستها في منزلي وتنفق علينا بمال مدنس ولا حق لي أن أتكلم، أواري سوءتي وأصبح بكماء هذا ما ترينه صحيحًا في نظرك؟

- "ياااه الآن حصحص الحق عندك بعد كل هذه السنين وأضحيت ترين الصح من الخطأ، على أساس أنني عشت معكم آلاء الله كلها وقلة عقلي هي من أخرجتني عن السرب.. بالله عليكِ جميع أنواع الحرمان تجرعتها في هذا البيت، قلة أكل، عراء، قهر، ضرب، وقلة قيمة فماذا تنتظرين مني؟ أن أصير أكيد الطريق السهل لأمثالي وهو بيع جسدي لتسديد حاجاتكما... بعتني لأشتريكما والآن تعايرينني! أليس من المفروض أن تأخذي بيدي لأخرج من هذا المستنقع؟ أن تجدي معي حلولا لأعبر طريق الضلال هذا، من واجبك وفرض عليك أن تكوني سندي وفكري وسراجي، بكلامك هذا أنت هدمت الكثير واستكلبت مع الأيام ضدي.. أهنتني وقيمتي تضحيتي ببخس.

آلمني جدًّا نكرانك للأسباب التي أدت بي للوصول لهذا الحال، فأنتم الآباء تهربون دائمًا من اللوم وتخافون العتاب وتكرهون سماع الحقيقة. لكن لا يهم فأنا لست من اختارت مصيرها بيدها، أنا التي أجبرتموني على أن أصير هكذا لذا مع أول فرصة سانحة سأتنكر لكل هذا لأنه على ما بدا فتضحيتي باءت بالفشل".

- هل ستمثلين دور المظلومة أمامي، أنا لم أدرِ حتى متى بدأت تشتغلين في هذا الميدان ولا كيف دلفت إليه وكيف أتتك الجرأة

لتكملي فيه... ففي مخيلتي أنت تلك الفتاة التي كلها حياء لم تكن لتزيل قشرتها مهما حصل.

بضحكة مستفزة قلت:

- "دلفت لهذا الميدان عندما كنت تغرقين في مرض الاكتئاب... عندما كنت جسدًا يعيش معنا غير مدركة لما نذوقه من مرار مع زوجك.... أصبحت بلا حياء عندما رأيتك ستضيعين مني فأسرعت لخسارتي والفوز بك... أزلت قشرتي عندما تركنا والدي بلا شيء عرضة لجل الاستغلال حتى من مصطفى البقال الذي تجرأ في سالف الأيام وتحرش بأمل... أنت لن تفقهي شيئا في كلامي لأنك لم تكوني حاضرة معنا... كنت في أمس الحاجة إليك وقتها فلقد كنت مراهقة لا تدري كيف ستتكلف بعائلة فيها أم مريضة وطفلة تحتاج للرعاية...

أمي اسمعي لا فائدة من هذا الكلام العتيق الآن.. دون لومي أو لومك أو استحضار الماضي هذه هي حياتنا فلنتقبلها ولنحمد الله أننا استطعنا الفوز بأنفسنا بعد كل الذي مررنا به.. فالظروف التي وفرتموها لنا سفاحة سفكت الكثير من أحلامنا وآمالنا".

تركتني ودخلت لغرفتها... عانقتني أمل بحب وأوصتني بعدم اتخاذ كلام أمي على محمل الجد فهي تحبني وأكيد هي لا تقصد ما روت.

بدا الليل أكثر حلكة من نافذتي... ظهرت عليه ملامح القسوة عندما أبى أن ينقضي... تركني أصارع ما جرى بيني وبين أمي محاولة فهم دوافعها التي أدت بها لمحاكمتي بهذه الطريقة البشعة، فعندما يرجمك الأقربون بأسرارك تصاب علاقتكم بالصدأ وتنتهي صلاحيتها لأنهم هتكوا حرمة الثقة التي وهبتها لهم.

آلمني ما سمعت منها فليس العيب في الكلمات لكن العيب فيمن قالها وكيف هان عليه قولها وكسرك.

فتشت داخل جعبتي عن أسباب تشفع لأمي قساوة كلامها لكنني لم أجد؛ لأنها على بينة بكل شيء وموقفها كأنها تحاول إدانتي وإعطاء البراءة لنفسها مع العلم أنني الضحية بينهم.

جهزت حقيبتي وخرجت باكرًا من المنزل كي لا أتواجه معها مرة ثانية... اتجهت إلى شقة منصور؛ لم أرد أن أظل بمفردي..

مضت ثلاثة أيام ولم تتصل بي قط... أنا وأمل على اتصال دائم لكن هي لم تسأل عني كعادتها... لم أرد يوما أن يصيب التوتر رابط الوصل بيننا وليس من شيمي أن أترك المنزل بسبب مشادة كلامية لم تكن ربما في وقت مناسب.

الباب لا يفتح معي.. حاولت عدة مرات لكن القفل يستعصي الفتح...

- ألو أمل، ما بال قفل الباب لا يفتح معي؟

بصوت منخفض:

- وردة لقد غيرت أمي مفاتيح المنزل وهي الآن معي في المحل تعالي لنتحدث معها فهي أضحت تصرفاتها غريبة هذه الأيام.

- حسنا إنني آتية يبدو أن أمك فقدت صوابها وبصراحة لم يعد لدي صبر كاف لمجاراتها...

*****

الفصل الخامس عشر

" وكأن الأيام دهاليز مظلمة يقودك الواحد منها إلى الآخر فتنقاد لا تنتظر شيئًا.. تمضي وحيدًا وببطء، لا فرح لا حزن لا سخط لا دهشة أو انتباه"

رضوى عاشور

أتحرك ببطء شديد نحو الخلاص... بوصلتي منكسرة العقارب لأعلم الاتجاه الصحيح... لم تعد أمي تريد رؤيتي في المنزل، بشكل مخيف جدًّا انقلبت ضدي... كل شيء حصل في صمت، لم تواجهني، تركت أمل الوسيط بيننا وهي من كلفتها بإبلاغي بعدم المجيء للبيت ثانية. لم أعارضها فأنا أتفهم حالتها النفسية غير المستقرة والتعثرات التي مرت وتمر بها.. ومن الأفضل أحيانا أن نترك الحريق يخمد لوحده دون تدخلنا، ونار الغضب والشك والحيرة كانت مشتعلة كاللهب في قلب أمي فلم أرد أن أزد ألسنتها.

تمنيت كثيرًا أن أتخلص من الذكريات.. أن أقتلها بداخلي لو أمكن.. فأنا لا أحمل معي سوى حقائب من الذكريات المتعفة بالقهر والحسرة التي تعصر فؤادي حزنًا ووجعًا.

كنت أنتقم من نفسي.. مكثت مع منصور وراودته عن نفسه مرارًا وتكرارًا كأنني أفرغ غضبي وخنقتي وقهري وعجزي كذلك في الجنس.. متعته لدرجة لا توصف، جعلته يدمنني بعد مدة قصيرة حتى صار تحت إمرتي.. مارست معه ما لم يخطر على باله وأعطاني من النقود والهدايا ما لم يتصور أنه قادر على إعطائه لأي امرأة مهما كانت.. بصراحة استغللت إعجابه بي وأنا أيضًا لن أنكر أنه يثيرني.

أحس معه بالأمان، أكون معه على سجيتي ويتقاسم معي أحزاني ويواسيني في أوقات ضعفي.

لم يعجبه ما فعلت أمي بي، أكد لي أنه سيصلح الأمور بيننا بعمل بسيط وسيزول غضب أمي ويندثر جفاؤها.

- يا إلهي هل سأسحر لأمي لتحبني يا منصور هذا غير معقول أبدًا.. مستحيل

- لا لا ليس سحرًا أبدًا، أقسم لك عزيزتي هو فقط فك للتوتر والمشاكل التي بينكما، لا تقلقي، ثقي بي وستتعدل علاقتكما، فأنا لا يهون عليّ رؤية الورد ذابلًا هكذا

- حسنا، افعل ما تراه صائبًا المهم عندي أن ترضى أمي عني فمهما حدث تظل المرأة التي أنجبتني ولا استغناء عنها.

تساءلت كثيرًا أنه لو كان يجمع بيننا الحب لما كانت عائلتي بهذا الشكل.. ربما كنا سنتجاوز الكثير، كنا سنصلح من أنفسنا لنسعد بعضنا.. كنا سنحيا من أجل بعض ولن يهون علينا رؤية أحد فينا يمتلكه الحزن أو الأسى، بالعكس كنا سنسارع في البحث عن السعادة له وإرضائه...

ربما الحب يغير العلاقات، أكيد سيغير العلاقات فكل المشاعر تحدث الفرق ما دام أن الكره يولد الانتقام ويجعل من الحياة جحيمًا فالحب قادر على تليين الأيام وتزيينها بالود لتصبح جنة في أعين الناس.

كنت أستفرد بأمل في المحل عندما تكون أمي في حصص القرآن... أستفسر عن أخبارهما وأترك لهما من المال ما يقضي حوائجهما رغم أن امل تأبى أحيانا أن تمسك النقود بحجة أن المحل مبيعاته ممتازة، لكنني أصر على تركه بحوزتها فلا أحد يدري بما تأتي به رياح الأيام.

وأنا بالمحل أثرثر مع أختي دلف علينا شاب ببدلة رسمية أنيقة.. بمجرد دخوله ارتسمت على أمل ابتسامة عريضة دلت على معرفتها الجيدة به.. قامت من مكانها لتحضر طلبه دون حاجته لقوله ولغة العيون تتحدث بينهما على أساس أنني لن أفهم ما يدور حولي.. فلقد أدركت أن شيئًا خفيًّا يحدث من ورائي. انتظرت إلى أن انتهى عرض الحب وعادت لمكانها بجانبي وسألتها:

- يبدو أنكِ حفظت طلبات زبائنك دون حاجتهم لقولها؟

بتلعثم أجابتني:

- آه طبعا فمن يشتري مني بشكل يومي أصبحت أعلم مطلبه كهذا الزبون الذي ذهب الآن هو يشتغل في البنك الذي أمامنا ودائما ما يأتي ليأخذ الحلويات المحشوة باللوز والمنسمة بالزهر فهو يعشق الأصناف التقليدية

قلت: مممم إنه وسيم أعجبني.

احمر وجهها ونظرت إلى الأرض وأردفت:

- نعم ذو أخلاق كذلك فمنذ أن عرفته وهو يلتزم احترامه معي، شخص متعلم وموظف وواضح أنه ينتمي لعائلة غنية فسيارته وحدها تبرز مكانته الاجتماعية.

- وأنت كذلك من عائلة محترمة ويمكنك الحصول على سيارة إذا أردتِ، اذهبي غدًا وادفعي رسوم التسجيل في مدرسة للسياقة والسيارة هدية مني لك.

- هل هذا صحيح يا وردة؟ لكنه كثير عليك بإمكاني ادخار المال وشراء واحدة لا تكلفي نفسك أرجوكِ فالحمد لله المحل رزقه يغنيني.

- رزقه ادخريه وكبري به مشروعك والسيارة علي.. سأتصل بك غدًا لأتأكد من ذهابك لمدرسة السياقة ولا تخبري أمي بشأن السيارة الآن.. وما دام لدي ما أعطيه لكِ سأنفق كل ما أملك لأجلك. والمرة المقبلة بلغي سلامي للبنك هههه.

باستحياء قالت:

- إلى ماذا تلمحين يا أختي فأنا أعرفك.

- هههه لا لا أبدًا أنا فقط أسلم على جارك يا فتاتي.

أحببت فكرة أن تكون أمل معجبة بشخص ما أو بالأصح في حياتها رجل فنظراتها عندما كان موجودًا لا توحي إلا بالحب. وموضوع السيارة هو حاجة في نفسي أردت أن أقضيها، فأنا لا أريدها أن تشعر بالنقص، يكفيها ما ذاقت.. صبرتْ كثيرًا، تحملت أوجاعنا ولزمت الصمت.. لذلك عاهدت نفسي على تعويضها. لكنني بحاجة لمعرفة هذا الشخص عن كثب والتحدث إليه.

أمي لم تكترث لأمري حتى الساعة كأن برودًا اجتاحها من تجاهي. يبدو أنها لم تعد تعترف سوى بأمل.

لم أعد أذهب مع أي رجل منذ مكوثي مع منصور. يوفر لي أكثر من احتياجاتي ولا يفرض عليّ ما لا أطيق.. رقيق في تعامله معي في جل الأمور حتى في الفراش يضاجعني بحب، أحس بدفء لمساته وبقبلاته التي فيها الكثير من الحنان.. حضنه طمأنينة وعندما ننتهي يحاوطني بذراعيه ويغرس رأسي في صدره ويدلك شعري ويسمعني ألذ الكلام.

كنت متأكدة من أنه يحبني وكنت أعلم أنه يصارع التضاد الذي بداخله من ناحيتي، فنصفه يريدني والنصف الآخر يرفضني لأنني عاهرة، جسد سار فوقه رجال كثر ورحم متعفن بقذارة الآخرين فصعب جدًّا أن يعدم الحقيقة من مخيلته خصوصا أنه يصطفي لي الزبائن بنفسه.

لذا كنت أضع أي أمل يراودني في المقصلة كي لا أتعلق بحبال ستشنقني فيما بعد.

إعادة نفس الشريط المليء بالندم والتأنيب واسترجاع الماضي الحزين الموشوم بالقهر لم أعد أطيقه.. فتكرار ما فات دون تغيير ما هو آت لا يجلب سوى المشاكل.

وأنا كرهت المشاكل وأردت أن أتقبل حياتي وأفتش فيها عن زوايا أخرى ربما لم أرها سابقا... زوايا من الممكن أن تحملني لمكان آخر وتشفيني من أسقامي.

أحتاج لأن أستعيدني..

أن أبحث عن نفسي ومن أنا وماذا أريد...

فكل ما أنا عليه الآن هو نتاج ما هم صنعوني لأجله؛ لأنني لم أختر ولم أوافق والكارثة أنني لم أرفض فتهت..

*****

الفصل السادس عشر

" الحياة لا تعطي الفرص للجميع... هي تهين البعض...
وتمزقه حتى ينزف وجعًا..."

بعض الأنانية مشروعة لحماية نفسك من استغلال الآخرين لك. فالبعض كلما أعطيتهم وضحيت لأجلهم نعتوك بالمقصر وأنت الذي احترقت فوق أتون الألم من أجل توفير راحتهم.

قررت العودة للمنزل دون تسويف أكثر، فالأزمات إذا ظلت صامتة ستنفجر بشكل مروعٍ لذلك توجب عليّ إنهاء هذا العرض السخيف بيني وبين أمي وإعادة الأمور إلى مناصبها ليستقيم كل شيء.

أجبرت أمل على إعطائي نسخة من المفاتيح فمهما جرى فهو بيتي ولي نصفه. وجدتها متكئة تشاهد التلفاز لكنها سرعان ما قفزت من مكانها عندما رأتني.

- ماذا تفعلين هنا؟ ومن سمح لك بدخول بيتي؟ ألم أقل لك ألا تطأ قدماكِ عتبة بابي ثانية يا وردة؟

ببرود قلت: ردة فعلك هذه تمنيت أن أراكِ تمارسينها عندما كان أبي يهين بكرامتك وكرامتنا الأرض، هذه النظرات والقسوة كانت يجب أن تنفجر أمام من عرضك للذل والاحتقار وليس لي أنا يا أمي التي دفعت ثمن أخطائك فضاعت حياتي بسبب ماضيكِ وضعفك وقلة فهمك.

- أنا لم أهدكم سوى الحب.. تم نسف كل أحلامي بألغام ظروفكم، وبرزخ شبابي أضحى حياة بائسة بلا نور، ومع هذا كله لم أعاتبكم ولم أكرهكم وليشهد الله أني لم ألعنكم حتى في نفسي يوما ما..

تصالحت مع قدري ومشيت في تيار ضدي لئلا يكون للناس علينا فضل في شيء ولا نكون عالة على أحد ونقفل علينا أسوار بيتنا ونحن بكرامتنا.

- لو أن أبي تعامل معي هكذا لم أكن لأستاء أو لأحزن فهو لم يكن يملك ملكة الإحساس. لكن أنت غير، عشنا معًا نفس الحياة وتقاسمنا ذات الأوجاع وعلى يدك تصرف الزمان فينا فلم تجبرت وصدأ قلبك.

- أتدرين؛ فكرت ربما بتي الآن ترين طريقتي في جلب الرزق غير مشروعة لكنها هي من أنقذتك من هلاكك فلولاي لكنت حمقاء تجوبين الشوارع بسبب حالات الاكتئاب التي لو استمرت دون علاج للاذ عقلك بالفرار.. أنت لم تجدي سواي، حتى أختك انصهر وجودها من حياتك بعد محاولتك في الانتحار. أنا من ضمدت جراحك ورتقت كلوم الدهر فلا ترمين باللوم عليّ أرجوكِ.

بصرخة قوية قالت:

- "كفى.. كفى.. اصمتي.. أنا لم أرد إيلامك ولا إيذاءك ولا حتى طردك من المنزل.. هي حالة من النفور أتتني فهاجت أعصابي وخرجت على شكل إعصار كاسر فلا تحرقيني بهذا الكلام. حقًّا أتمنى أن أراكِ تاركة هذا الدنس وعائدة إلى المضمار الصحيح كي أكف عن رؤيتك تضيعين. لكنني لا أقوى على هجرانك وإخراجك من حياتي فهذا مستحيل... أنا من ينبغي أن يطلب الغفران منكم لأنني تركت للآخرين اختيار مصير حياتي فدفعتم الثمن أكثر مني.

فعلى المرء أن يردع كل من يحاول أن يبحث عن هفوات في حياته ليتخلص منه ويرميه في النار ليرتاح هو. وغلطتي أنني تركت غيري يقرر مصيري، تركت غيري يسرق مني مفاتيح حياتي لأضيع في دهاليز أيام لم ترضَ قط أن تفتح لي أبوابها... غلطتي أنني خفت فدفنت حية.

انظري يا أمي مبتغاي هو بداية جديدة لنا كلنا.. نترك الماضي والأخطاء والعتاب في محطة النسيان ونفكر في أنفسنا وراحتنا.. فلنبِع هذا البيت ونذهب لمكان آخر، على الأقل سنتخلص من رائحة الألم التي تعفن جدرانه...

لنعثر على ما سقط منا طوال هذه السنين، عسى أن نبعث أحياء من أجداث الأسى".

تمت المصالحة فكانت أمل أكثرنا سعادة.. حبذت فكرة رحيلنا من الحي وبيع كل ما بالبيت والمحل وهجران المكان.

كي لا تُكَتّف أيدينا، أيقظت أمي صباحًا وذهبنا لرؤية شققًا لنختار منها مستقرنا الجديد.. سألنا عن الأسعار ووضعنا أملاكنا للبيع... خطوة كان لا بد لنا من تنفيذها من زمان دون إطالة الأمد...

عندما يرضى عنك القدر تصبح كل أمورك لينة الحصول، بعد أسبوع كنا في منزلنا الجديد القابع في حي حديث البناء وسط إقامة

يقطنها أناس ذوو مستوى والأهم أنهم لا يعرفون ماضينا ولا فضائحنا التي رسمها أبي على حيطان جيراننا.

كنا فرحين بتأثيث البيت على ذوقنا واقتناء كل أساسياته بحب، أحسست ولأول مرة أنني أمتلك بيتًا حقيقيًا يملؤه الدفء.. الغرفة الأكبر كانت لأمي بها شرفة تطل على حديقة منظرها يسر العين والروح.. فالاستيقاظ ومن حولك جمال الحياة يهبك إحساسًا بالراحة يساعدك على إكمال يومك ببهجة.

أصبحنا نلتقي.. تجمع بيننا جلسات الشاي.. نستأنس بمشاهدة التلفاز.. نرى وجوه بعض بوضوح دون دمعة تغطي عين الأخرى أو حسرة تعتصر في قلب إحدانا.. قررنا التجاوز وإعطاءنا حق النسيان كي نرحل بعيدًا عن الآلام التي صلبت أفئدتنا.

بعد تفكير عميق مع ذاتي أزمعت على عتق رقبتي من الحرام وإسدال الستار على ما فعلت لأنني لم أرغب يومًا في البقاء بائعة هوى.. فالمرء ينتهي عندما يفقد قيمته مع نفسه وأنا كان لا بد لي من استرجاعي.

التجأت لمنصور لأخبره بخطوتي.. يجيد الإنصات لي وسيكون فرحًا بقراري، فأنا قادرة الآن على جعل مشروع أمل أكبر وأكبر وبهذا نستطيع أن نعيش في راحة مادية نحن الثلاثة في استقرار جدًّا.

بعد ليلة جامحة جمعت بيني وبين منصور التي غلب فيها شيطاني عليّ وآزرني، أعلنت له أنني سأنصهر من هذا كله ولن أعود لممارسة هذه الرذيلة مرةً أخرى وهذه الليلة هي بمثابة وداع جنسي لنا وطبعًا علاقة الصداقة ستبقى قائمة بينا...

اعتلت عليه ملامح الدهشة وقال:

- هل تظنين أنه من السهل الخروج من هذا متى أردت بعدما جمعت دراهم معدودات يا وردة؟

بسذاجة أجبت:

- وما المانع في هذا؟ فأنا حرة وأظن أنه يتوجب عليك أن تفرح بقراري هذا، أليس هذا هو المفروض؟

- أنتِ ملكي أنا وأنا المسؤول عنك، وأنا الذي أقرر متى تتركين هذا العمل...

- لكنني تعبت من هذا كله.. أريد أن أحيا بشرف ونقاء.. أريد أن أكون كباقي الناس، من حقي أن أنظف أوساخي وأعيش.. هل تستكثر عليّ التوبة يا منصور؟

- لا أحب كثرة الكلام، عملك معي لم ينتهِ بعد.. هناك زبائن تطلبك بالاسم وأنا كنت متعاطفًا معك بسبب مشاكلك مع والدتك ونفسيتك التي كانت مريضة؛ لكن الآن انتهت إجازتك وغدًا ستباشرين ما أنت ترغبين في تركه.

رفضت وصرخت في وجهه بأنني لن أرضخ له وسوف أنهي هذا كله وستموت علاقتنا هنا وكل شيء أضحى ماضيًا مقرفًا.

أخرج من خزانته هاتفًا لم أره عنده من قبل ثم أعطاني إياه لأرى شيئًا ما؛ كنت أنا... عارية في كنفه... نمارس الجنس بوقاحة وكل التفاصيل بارزة كأنه فيلم إباحي...

سقط الهاتف من يدي وسقطت معه أرضًا... صدمت، تجمدت أطرافي وانتهيت لحظتها.. كارثة وقعت فوق رأسي ولا مفر لي منها.

- اسمعي يا وردة أنا لم ولن أعرض هذه الفيديوهات على أحد قط ما دمت معي وتسمعين كلامي وتنفذين أوامري... أنت فتاة لن تستحمل فضيحة من هذا النوع فلتبقي تحت سيطرتي إذًا.

- يااه فيديوهات يا منصور!! كنت طوال هذه الفترة تسجلني وأنا الغبية التي لا تفقه شيئًا محاطة بغشاء السذاجة.. لمَ فعلت هذا معي أنا لم أؤذك يومًا ولم أتسبب لك في أي مشاكل، دائما ما أقول نعم وحاضر، هكذا تجازي طيبتي وعشرتي.. لكن هذا ليس بجديد عليك فأنت قليل مروءة وأصل لا يجب أن أستغرب مما فعلت.

لم يعر كلامي اهتمامه، تركني وخرج ببرود.

قسوته أهانتني... رأيت نفسي مجرد حثالة أمامه لا شخصية ولا كلمة لها.. فقط جسد يباع والمطلوب مني الصمت...

قضيت حياتي كلها صامتة لا أجادل القدر وها أنا ذا أضيع وأضيع...

*****

الفصل السابع عشر

" سكوتك عما لا يرضيك، تنازلاتك الأولى، تغاضيك عما أتعبك، إخفاؤك لرفضك، تحملك، كتمانك، جميعها صلابة لم تؤلم أحدًا سواك"

جبران خليل جبران

جف فكري من التفكير والبحث عن حلول... إذا قمت بخطأ واحد معه سينهيني بدلائله ضدي.. لقد رميت بنفسي إلى التهلكة ولا حجة لي بالدفاع عني.. ماذا سأفعل؟ وكيف سأحل قضيتي؟ لا أدري كيف.. أسبح في بحر الخوف والرعب ينخرني... أقضي طوال الوقت أفكر في حل ينقذني من ورطتي هذه... أصبحت غائبة؛ جسدًا بلا عقل.. أمي تسألني ما خطبي وأراوغ في إجاباتي..

فكرت أن أُصلي؛ أناجي ربي لينجيني من هذه المصيبة.. فبابه مفتوح دائمًا لا يوصد أمام أحد. لكنني خفت ألا يقبل دعائي، ألا يسمع ندائي، أن يتركني ألقى شر أعمالي وألقى جزائي.. مع كل هذا أحسست بشيء داخلي يقول لي اذهبي إلى ربك لن تخيبي ما دمت تثقين فيه... حاولي ربط الوصل بخالقك هو الوحيد القادر على ردع السوء عنك.

تركت الأمر في يد الله... استجرت به وحاولت ألا أشغل بالي بالموضوع كثيرًا كي لا أتعب نفسي.. فالتفكير في المشكلة بدلًا من الحل يجعل المرء يدخل في حالة من اليأس تجعله غير قادر على رؤية النور.

أمل، لم أعد أذهب عندها للمحل منذ فترة ولم نلتقِ كذلك.. سألت عنها أمي فأخبرتني أنها غادرت صباحًا لاجتياز امتحان السياقة.. لاحظت عليها والدتي اهتمامها الزائد بنفسها وانشغالها في الهاتف طوال الوقت، حاولت إيقاعي بالكلام كي أكشف عن حقيقة الموضوع لكنني ظللت متسترة عما يحدث بينها وبين عماد.

بعد مدة قصيرة أخبرتني أمل بأن "عماد" دعاها للعشاء وراغب في إخبارها بشيءٍ مهمٍّ بخصوص علاقتهما، كانت فرحةً جدًّا، ارتدت أغلى وأحلى ثوب تملكه، عيونها كانت ترقص بالسعادة، خرجت وهي منتشية بأن يحصل معها شيء جميل تتمناه كثيرًا. فالنساء يبحثن عن الرجل الذي يشعرهن بالأمان.. عمن يكون سندًا وعزوةً لهن، وهذا ما تنتظره أمل من عماد؛ أن يكون لها أبًا وزوجًا وأملًا لا يخيب الرجاء فيه.

لم تمضِ ساعة وإذا بأمل تدلف المنزل وعيونها محملة بدموع كالمطر..

- ما بكِ؟ ما الذي جرى معك أخبرينا؟

سقطت أرضًا تلعن فينا وتنعت نفسها بالبلهاء الفقيرة

بعصبية قلت لها أن تطلعنا على الموضوع بدلًا من هذا النواح الذي تقوم به.

- لقد رفضني عماد... رفض اتخاذي كزوجة له لأنني لا أنتمي لمستواه الاجتماعي، لأنني لا أملك شهادةً جامعيةً ولا أتقن اللغات.. لأنني من عائلة بسيطة وعادية وأمه لن ترضى بأن يتزوج فتاةً مثلي رغم أنه يحبني؛ لكنه لا يقوى على عصيان والديه. أعلمتِ الآن ما الموضوع يا وردة؟ أأدركت أننا ملعونون ولا حق لنا في السعادة؟ أرأيت أن أمثالنا لا يمكنهم الزواج بمن هم أعلى

منهم؟ وهذا بسبب عائلتنا... بسبب أبي وأمي التي رضيت بالذل لنا..

لم تجبها والدتي؛ بكت بحرقة ثم دلفت غرفتها... حاولت تهدئة أمل قدر استطاعتها بكلمات تؤازرها عسى أن تواسيها كي تستطيع فقط النوم وللصبح حديثٌ آخر.

لقد كانت متعلقة به، قامت ببناء حياة برزخية معه في خيالها.. به أكملت النقص الذي يجتاحها، لكنه هدم كل شيء بفعلته هذه معها..

عقد كبيرة من الرجال أضحت تعانيها أمل، خذلان أبي لها وترك عماد لها في المنتصف... قاسٍ عليها هذا كله.. فهي حاولت بوجود عماد ترميم التشوه الذي تسبب به أبي داخلها؛ لكنه أتى ليدمر ما تبقى منها.

سجنت نفسها في غرفتها.. رفضت فتح المحل.. انفردت بذاتها وأغلقت في وجهنا باب الحوار والسؤال.

كانت تمر بحالة اكتئاب، صدمة اجتاحتها لم تكن تتوقعها، فكل شيء فيه كان يقول بإنه يحبها ويريدها وفي الآخر ينهيها بهذا الشكل. فقاسٍ جدًّا أن نتخذ شخصًا ما عضدًا في حياتنا ونعول عليه أنه كل شيء في حياتنا وفي الآخر يتركنا ببساطة وبأعذار واهية لا تشفع له أسباب الرحيل وهجرنا.

وهذا ما آلم أمل، أنه فعلًا لو كان يحبها لما كان ليتركها.. كان سيضحي من أجلها.. سيواجه والدته والكون بأسره ليكون معها، لكن يبدو أنه كان يبحث عن ثغرة ليرحل.. جبان جدًّا فالرجل يصرح بأنه راغب في إنهاء كل شيء دون وضع حجج باطلة كشماعة يعلق عليها سبب تركه.

دلفت عند أمي لغرفتها كانت تبكي من حرقتها ولا قدرة لها على تغيير الواقع...

- "ما بك هل سنظل هكذا نبكي كلما أتتنا مشكلة؟

لا يا ابنتي لكن أدركت أن خطأً واحدًا قادرٌ على تدمير حياة أناس كثر.. ترتب عن جهلي وضعفي ضياعكما، كيف لي أن أنام أو أرتاح وابنتي قلبها بركان من الألم، جرحها عميق وروحها مكسورة وأنا السبب في هذا، فلو زوجني أبي لرجل صالح لما حصل كل هذا.. أبي عاقبني على غلطة ارتكبتها وأنا مراهقة، صغيرة لا عقل لي.

- عن أي غلطة تتحدثين يا أمي؟

- لا لا... أعني أنه عندما توفت أمي أحس بأنه لا بد له من تزويجنا كي يرتاح باله منا لم يكن يدرك أصل أبيكما جيدًا، وثق فيه وظن فيه الخير.

- لا عليكِ يا أمي أنا متأكدة أن أمل أقوى من هذا كله، بعد مدة ستعود كما هي وستباشر عملها لتبين لعماد أن حياتها لا تتوقف عليه فهي لديها فيها أشياء أهم منه وما حصل عادي جدًّا لا يسبب

أي عائق لها، فهي تملك الكثير ويتمناها كثر. سنتركها تعيش حزنها لفترة لكنني لن أسمح للحزن أن يأخذها في غياباته.

ربما ستتعلم أن من يأخذ الأشخاص هدفًا في الحياة سيضيع بين أزقتها عندما يخذلونه.

شعرت بأن الزمن يقتص منا ونحن لم نؤذه في شيء، كارثة وراء كارثة تصيبنا... أنا أتعرض للابتزاز من شخص حقير لا مروءة له، يحمل ضدي سلاحًا يشتتني إلى أشلاء بضغطة زر وإن فعلها فلن أكمل يومًا على قيد الحياة فالموت أرحم من فضيحة ستجعل المجتمع برمته ضدي مع العلم أنهم يفعلون الكوارث في الخفاء... وأمل، الزهرة اليتيمة التي لا حظ لها، تضع الأيام مطبات كثيرة للوقوع بها.. حالة من الشذوذ يشهدها قدرنا.. يمزقنا إربًا بسكين الألم.. يستلذ بآهاتنا وينتشي بانكساراتنا كأن الوجع من نصيبنا نحن فقط رغم كبر العالم.

منصور كل يوم يصبح قذرًا معي أكثر من ذي قبل.. يأخذ مني نصف المبلغ الذي يعطيني إياه أي زبون. تحول إلى وحش معي لم أتخيل يومًا أنه سيكون هكذا ولا أفتح فاهي بشيء. حتى إنه أصبح يمسكني بالقوة لأمارس معه الجنس، فبحجم اللذة التي كنت أشعر بها وأنا بين أحضانه أضحيت أكره لمسه لجسمي بسبب تصرفاته الحيوانية معي. لم أعد أستحمله.

تسلل الأمل لأمل وعادت لعملها.. وهذه المرة بنفس جديد وإرادة من حديد.. رفضت ذهابي لعماد وتوبيخه على ما فعل بها فلقد كنت أنوي إهانته أمام الجميع في مقر عمله ليرى قيمته الحقيقية.

فالإهانة يجب أن ترد بإهانة أكبر منها ليشعر بالذل والنقص.. فأصحاب المال يظنون أنفسهم أحسن من الجميع وأعلى من الناس، فما عادت الأخلاق والقيم تثير الانتباه؛ فقط النقود هي من تحدد مكانتك في المجتمع.

بغض النظر عما حصل، المهم أن أمل صلح حالها وغدت أفضل حتى وإن كان جرحها لم يندمل بعد.

هذه الفتاة تملك غرابة ونقيضًا لم أره عند أحد، أذكر كم كانت في صغرها متمردة ولا تنصاع لأوامر أحد منا حتى ظننت أنها ستنفجر فينا يومًا ما كبركان وتطلب أن تتحرر من علاقتها بنا لما كانت عليه من غضب طيلة الوقت ورفض لكل شيء أقدمه لها.. لحين اكتشفت أن حالها لم يكن سوى ريح موسمية عابرة لا ضرر فيها فهي أبرأ من أن تهلك الحرث أو تحرق الأصل.

فالذكريات المشبعة بالتفاصيل تحرق الفؤاد وأنا متأكدة أن أمل تحمل معها تفاصيل من عماد تسبب لها الحزن الكبير لكنه سينتحي مع الأيام ستنشغل بأشياء تنسيها ما حصل.

*****

الفصل الثامن عشر

" سرنا حتى آخر النفق لكننا لم نجد النور الذي قالوا لنا عنه "

نرتاح عندما نسمع كلمة طيبة تهون علينا جبروت الأيام... بصراحة الأيام لم تفعل لنا شيئًا، البشر هم من يؤذون بعضهم بعضًا ويستغلون حاجة غيرهم لتفريـغ ذلك القهر والكبت الذي عاشوا فيه.. الناس هي من تخرج من بعضها الوحوش الكامنة بداخلهم... تصرفات من بجانبنا معنا هي من تقودنا للقيام بأفعال لم نتخيل أننا سنصل إليها لكنها حيونة الآخرين.. أقسم أن الكثيرين أبرياء لكنهم الأنام هم من يشوهون صورتهم ويسودون بياضهم.

حاولت كثيرًا تجاهل منصور.. كلماته الجارحة معي تذبحني لكنني أتحملها... ينعتني بالعاهرة ويحتقرني كلما أرسلني لزبون... حالي تدهورت حتى أصبحت كالبكماء.. عقلي مسافر لمكان لا أعرفه، وجهتي منعدمة، الزمن توقف بي وأبى الاستمرار.

كل يوم أستيقظ على أمل أن يحدث معي شيءٌ جميل أو معجزة تغير منحى حياتي لكن لا شيء يحدث. أظل أنتظر طوال النهار لكن دون جدوى، كالحمقاء يعتريني هيجان الأمل المفقود ومع ذلك متمسكة به؛ لأنني لو تخليت عنه سأموت.. فالمرء يحتاج في أيامه العصيبة للتشبث بالأمل حتى وإن كان سرابًا كي يستطيع تحمل قهر الزمان.

ما عشته مسيطر عليّ لا يخرج من ذاكرتي بكل تفاصيله، فالماضي عالق فينا.. أحداثه تظل منقوشة على صدر روحنا... هو هويتنا حتى وإن كان يخزينا.. هو نحن برغم كل النواقص والآلام التي فيه.

بكل ما أوتيت من صبر، أستحمل استغلال منصور لي، أطاوعه وأمتثل لأوامره كجارية رخيصة لا قيمة لها.. يضاجعني بعدم رغبتي، يأخذ مني مالي ويهينني في كل حين.. حاولت أكثر من مرة إقناعه بإعطائي الفيديوهات وسأظل أمة له مدى الحياة وسأعمل وآتيه بالمال كله؛ لكنه كان يرفض في كل مرة وباستماتة.

مرت شهور والوضع معه لم يتغير، لم ينفعني جمالي ولم يخدمني إغرائي في تحرير نفسي منه.. فكانت تراودني فكرة تفتيش البيت وهو غير موجود مرارًا وتكرارًا لكن خوفي كان يمنعني، إلى أن أتتني فرصة أبيت أن أضيعها.. تركني نائمة وغادر صباحًا، استيقظت فورًا وتأكدت من أنه أصبح بعيدًا عن العمارة.. فتشت المنزل برمته كالمجنونة.. كل شبر فيه مررت عليه، الخزائن، الأدراج المطبخ، الحمام لكنني رجعت بخفي حنين.. بكيت بحرقة على حظي السيئ والمنزل من حولي يعم بالفوضى، قمت بحسرتي أنظف المنزل حتى بعث أمامي جسده بنظرات أرعبتني:

- منصور أأتيت؟ لم أشعر بصداك وأنت تدلف.

- ماذا كنت تفعلين يا وردة؟ ولمَ المنزل على هذا الحال؟

- فقط أنظفه لم أرد أن أذهب وأتركه هكذا.

قبض على أنفاسي بيديه الخانقتين وألصقني بالحائط.. لم أعد أستطيع التنفس، ألهث من حر قبضته... حررني، ثم صفعني بقوة وشدني من شعري وأخذ يضربني بكل قوة.

- أتظنين أنني معتوه لأصدق أنك كنت تنظفين المنزل؟ قولي إنك كنت تبحثين عما يقتلك، كل يوم تريدين العثور على فضيحتك، أليس كذلك؟

- أرجوك اغفر لي زلتي فأنا لم أقصد.

كأنه أصم لا يجيبني، فقط يخرج غله عليّ بكل حيوانية.. حاولت الهرب من تحته فاتجهت إلى المطبخ... أردت أن أخوفه لا أكثر فأمسكت بسكين وجدته فوق المنضدة أمامي وهددته بعدم الاقتراب مني. عسى أن يتركني ويخرج، قلت له بإنني سأقتله لو خطى خطوة مني.. يشتمني بأقذر الألفاظ ودموعي تذرف مني بقهر لم يراودني مثله في يوم، لم أتخيل أن يحصل معي يومًا هكذا موقف.. تبًّا للقدر.. للأيام، للأنام، للفقر والحاجة... فالحاجة هي التي تهلك.

باستهزاء يتحدث منصور:

- "تريدين خداعي أيتها الساذجة، أنسيتِ أنني لا أخدع ولا أخاف؟ أأبدو لك مغفلًا لأترك التسجيلات في عقر داري؟ من أين أتيت أنت؟ أريد أن أعرف ههههههه.

لكنني سأعيد تربيتك أيتها العاهرة لتعرفي من أكون سترين أسود أيامك معي تذكري هذا".

- إياك أن تقترب وإلا قتلتك فأنا لا أملك شيئًا لأخسره فلا تحاول معي..

في هذه اللحظة هرب خوفي مني وأحسست ببشاعة لم تزرني من قبل.. ففعلًا لا شيء سأخسره المهم أن أدافع عن نفسي.

هجم عليّ بكل قوته فتركت السكين منغرسًا في عنقه.. دماؤه غطت وجهي وملابسي والمطبخ، كانت رائحتها كريهة مثله. جثة هامدة يتمدد على الأرض، جلست بجواره وتمنيت له عدم الرحمة هو وأبي. فأنا لم أقتله هو فقط بل دسسته في أبي الذي أوصلني لهنا.

غيرت ملابسي وخرجت.. من دون تفكير أسير بالشوارع لا شيء يدور في عقلي، توقف الزمان بي أردت فقط أن أستنشق أكبر قدر من الهواء لأنني أدرك أنني لن أشمه بحرية بعد الآن.

دلفت منزلنا وقصدت غرفتي، أخرجت صندوقًا وأعطيته لأمي:
- ما هذا يا ابنتي؟
- إنه كل ما أملك، بعض المجوهرات ومفتاح المحل الثاني وأوراقه المكتوبة باسم "أمل" ورقم حسابي في البنك يمكنك أخذ كل شيء سأذهب للنوم قليلًا وأرجوكِ لا تسأليني عن شيء ستفهمين ما يجري غدًا.
نمت وكأنني لم أذق طعم النوم منذ سنين.. فأفكاري أُحرقت، أصبحت كالصريم فلم تعد تشغل بالي.
اتجهت صباحًا باكرًا للشرطة لأبلغ عن نفسي، لم أرد أن أشوه صورة والدتي وأمل وأنتظر إلى أن تأتي الشرطة وتعتقلني، لم أرد أن أسود وجوههم أمام الجيران كما كان يفعل أبي. والتهمة ترتديني وكل الأدلة تثبت أنني الفاعلة فلا داعي للهرب.
رفضت تعيين محامٍ للدفاع عني رضيت بالحكم الذي صدر ضدي وأحسست لأول مرة أنني حرة، فالسجن أحب إليّ من الضياع الذي أعيشه خارجًا.
صمت عن زيارة أهلي لي، طلبت منهما عدم رؤيتي مجددًا والاستمتاع بحياتهما من دوني.. كان قرارًا صعبًا علينا لكنني أردت الانعزال عنهما ربما هذا سيسهل عليهما نسياني. لكن أمي كانت تأتي وتنتظرني كي أخرج عندها محملة بكل شيء أحبه، أتركها ولا أقبل بمقابلتها.

لم أبكِ على سجني ولم أحزن لوضعي، فسابقًا تألمت، صرخت، كبرت الندوب معي وأصبح الحزن طريقة عيش فيكفيني بكاء على الأطلال.

لو عاد الزمن بي للوراء لما كنت بنيت حياتي على هذا الشكل، لما ضحيت من أجل الآخرين حتى وإن كانت عائلتي.. فأنا التي أدفع الثمن الآن وليس هم.. أنا من خسرت شبابها وأحلامها وحريتها وغدت أيامي عقيمة من الفرح.

أنا من انتحى وجودي وغاب كياني وهزمني قدري.. أنا من كنت الفريسة.. أنا من توارت خلف القضبان ومعي الكثير من الآلام والحسرة والآثام المعلقة على كتفي واللا شيء، فقط العدم يرافقني.

يلزمني وقت طويل لاسترجاع نفسي، أحتاج للبحث عن وردة تلك التي كان الصفاء يغطيها من الداخل ولكي أجدني لا بد لي من التنقيب عني بين الركام.

بعدي عن عائلتي سيسهل أمر شفائي، لأنهما السبب في كل أسقامي ولا أحد يشفى في البيئة التي آذته. فأحيانًا قطع حبل الوصل يجعلك آمنًا وناجيًا بنفسك؛ لأن وجود بعضهم يكون بمثابة سم سيقتلك ولو بعد حين...

رأيت في سجني أنه غاري الذي سأعتكف فيه فربما سأحظى بفرصة جديدة هذا ما أشعر به.

*****

النهاية

" بعض الآباء يدمرون أبناءهم قبل أن يدمرهم أي شيء آخر"

جيم موريسون

عندما يفرض علينا الصمت وعدم الجهر بما يؤذينا تكون فرص ضياعنا أكبر بكثير لأننا أضعف من أن نقول لا أو نرفض ما نؤمر به... لأننا أصبحنا كقطيع مجبرين على الانصياع.

وهكذا نوع من التربية والعرف يؤدي إلى انفلات أجيال وانحلال أسر ونهاية أخلاق المجتمعات. لأن الصمت يولد الكبت، والكبت ينفجر كبركان يرمي بشظايا العقد والأمراض.

علموا أولادكم الثقة في أنفسهم واجعلوهم في القمة ولا تعترضوا سبيلهم في النجاح ولا ترضوا لهم إلا بالعُلا والمجد.

*****

المحتويات